۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

شرح الكلمات :

أنما غنتم من شيء : أي ما أخذتموه من مال الكافر قهراً لهم وغلبة قليلاً كان أو كثيراً.

فإن لله خمسه : أي خمس الخمسة أقسام، يكون لله والرسول ومن ذكر بعدهما.

ولذى القربى : هم قرابة الرسول ﷺ من بني هاشم وبني المطلب.

وما أنزلنا على عبدنا : أي من الملائكة والآيات.

يوم الفرقــان : أي يوم بدر وهو السابع عشر من رمضان، إذ فرق الله فيه بين الحق والباطل.

التقى الجمعان : جمع المؤمنين وجمع الكافرين ببدر.

العدوة الدنيا : العدوة حافة الوادي، وجانبه والدنيا أي القريبة إلى المدينة.

بالعدوة القصوى : أي البعيد من المدينة إذ هي حافة الوادي من الجهة الأخرى.

والركب أسفل منكم : أي ركب أبي سفيان وهي العير التي خرجوا من أجلها. أسفل منكم مما يلي البحر.

عن بيِّنـة : أي حجة ظاهرة.

لتنازعتم في الأمر : أي اختلفتم.

ويقللكم في أعينهم : هذا قبل الالتحام أما بعد فقد رأوهم مثليهم حتى تتم الهزيمة لهم.

معنى الآيـات :

هذه الآيات لا شك أنها نزلت في بيان قسمة الغنائم بعدما حصل فيها من نزاع فافتكها الله تعـالى منهم ثم قسمها عليهم فقال الأنفال لله وللرسول في أول الآية ثم قال هنا ﴿واعلمـوا﴾ أيهـا المسلمون ﴿أنما غنمتم[1] من شيء[2]﴾ حتى الخيط والمخيط، ومعنى غنمتم أخذتموه من المال من أيدي الكفار المحاربين لكم غلبة وقهراً لهم فقسمته هي أن ﴿لله خمسه وللرسـول ولذي القربى[3] واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾، والأربعة أخماس[4] الباقية هي لكم أيها المجاهدون للراجل قسمة وللفارس قسمتان لما له من تأثير

---

(١) الغنيمة: ما يناله الرجل أو الجماعة بسعي وهو قتال الكافرين لغرض هدايتهم إلى الإسلام ليكملوا ويسعدوا، قال الشاعر:

وقد طوّفت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالاياب

(٢) الإجماع على أن هذا الحكم ليس على عمومه بل هو مخصص بقول الإمام: مَن قتل قتيلا فله سَلَبه، وكذا الرقاب، فالإمام مخيّر فيها بين القتل والفداء والمنّ وليس هذا للغانمين، وكذا السلب فإن من سلب مقاتلا شيئا كسلاحه وفرسه فهو له أيضا.

(٣) المراد بذي القربى: قرابة رسول الله ﷺ، وهم بنو هاشم، وهو مذهب مالك، وزاد الشافعي وأحمد: بني المطلب لأن بني هاشم وبني المطلب شيء واحد، ولأن الرسول ﷺ لما قسم سهم ذي القربي بين بني هاشم وبين عبدالمطلب قال إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام، إنّما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد وشبّك بين أصابعه) رواه البخاري.

(٤) من باب الاطلاع لا غير أذكر أنّ بعضاً قال: الغنيمة خمسها لله والأربعة أخماس للإمام إن شاء جبسها وإن شاء قسمها على الغانمين وهو قول مخالف لما عليه جمهور الفقهاء.

في الحرب ولأن فرسه يحتاج إلى نفقة علف. والمراد من قسمة الله أنها تنفق في المصالح العامة ولو أنفقت على بيوته لكان أولى وهي الكعبة وسائر المساجد، وما للرسول فإنه ينفقه على عائلته، وما لذي القربى فإنه ينفق على قرابة الرسول الذين يحرم عليهم أخذ الزكاة لشرفهم وهم بنو هاشم وبنو المطلب، وما لليتامى ينفق على فقراء المسلمين، وما لابن السبيل ينفق على المسافرين المنقطعين عن بلادهم إذا كانوا محتاجين إلى ذلك في سفرهم وقوله تعالى ﴿إن كنتم آمنتم بالله﴾ أي رباً ﴿وما أنزلنا على عبدنا﴾ أي محمد رسول الله ﷺ ﴿يوم الفرقان يوم التقى الجمعان﴾ وهو يوم بدر حيث التقى المسلمون بالمشركين، والمراد بما أنزل تعالى على عبده ورسوله الملائكة والآيات منها الرمية التي رمى بها المشركين فوصلت إلى أكثرهم فسببت هزيمتهم. وقوله ﴿والله على كل شيء قدير﴾ أي كما قدر على نصركم على قلتكم وقدر على هزيمة عدوكم على كثرتهم هو قادر على كل شيء يريده وقوله تعالى ﴿إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب[1] أسفل منكم﴾ تذكير لهم بساحة المعركة التي تجلت فيها آيات الله وظهر فيها إنعامه عليهم ليتهيئوا للشكر. وقوله تعالى ﴿ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد﴾ أي لو تواعدتم أنتم والمشركون على اللقاء في بدر للقتال لاختلفتم لأسباب تقتضي ذلك منها أنكم قلة وهم كثرة ﴿ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾ أي محكوماً به في قضاء الله وقدره، وهو نصركم وهزيمة عدوكم. وجمعكم من غير تواعد ولا اتفاق سابق. وقوله تعالى ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حَيَّ عن بينة﴾ هذا تعليل لفعل الله تعالى بجمعكم في وادي بدر للقتال وهو فعل ذلك ليحيا بالإيمان من حيي على بينة وعلم أن الله حق والإسلام حق والرسول حق والدار الآخرة حق حيث أراهم الله الآيات الدالة على ذلك، ويهلك من هلك بالكفر على بينة إذ اتضح له أن ما عليه المشركون كفر وباطل وضلال ثم رضي به واستمر عليه. وقوله تعالى ﴿وان الله لسميع عليم﴾ تقرير لما سبق وتأكيد له حيث أخبر تعالى أنه سميع لأقوال عباده عليم بأفعالهم فما أخبر به وقرره هو كما أخبر وقرر. وقوله تعالى ﴿وإذ يريكهم الله في منامك قليلاً﴾ أي فأخبرت أصحابك ففرحوا بذلك

(١) ركب أبي سفيان، ولفظ الركب لا يطلق إلاّ على الراكبين، والركب مبتدأ، والخبر متعلّق أسفل الظرف أي: كائن أسفل منكم.

وسُرّوا وطنوا أنفسهم للقتال، وقوله: ﴿ولو أراكهم كثيراً﴾ أي في منامك وأخبرت به أصحابك لفشلتم أي جبنتم عن قتالهم، ولتنازعتم في أمر قتالهم ﴿ولكن الله سلّم﴾ من ذلك فلم يريكهم كثيراً إنه تعالى عليم بذات الصدور ففعل ذلك لعلمه بما يترتب عليه من خير وشر. وقوله تعالى ﴿وإذ يريكموهم﴾ أي اذكروا أيها المؤمنون إذ يريكم الله الكافرين عند التقائكم بهم قليلاً في أعينكم كأنهم سبعون رجلاً أو مائة مثلاً ويقللكم سبحانه وتعالى في أعينهم حتى[1] لا يهابوكم. وهذا كان عند المواجهة وقبل الالتحام أما بعد الالتحام فقد أرى الله تعالى الكافرين أراهم المؤمنين ضعفيهم في الكثرة وبذلك انهزموا كما جاء ذلك في سورة آل عمران في قوله ﴿يرونهم مثليهم﴾ وقوله تعالى ﴿ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾ تعليل لتلك التدابير الإلهية لأوليائه لنصرتهم وإعزازهم وهزيمة أعدائهم وإذلالهم وقوله تعالى ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ إخبار منه تعالى بأن الأمور كلها تصير إليه فما شاء منها كان وما لم يشأ لم يكن خيراً كان أو غيراً.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

١ـ بيان قسمة الغنائم على الوجه الذي رضيه الله تعالى.

٢ـ التذكير بالإيمان، إذ هو الطاقة الموجهة باعتبار أن المؤمن حي بإيمانه يقدر على الفعل والترك، والكافر ميت فلا يكلف.

٣ـ فضيلة غزوة بدر وفضل أهلها.

٤ـ بيان تدبير الله تعالى في نصر أوليائه وهزيمة اعدائه.

٥ـ بيان أن مرد الأمور نجاحاً وخيبة لله تعالى ليس لأحد فيها تأثير إلا بإذنه.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾

---

(١) قال أبو جهل: إنهم أكلة جزور خذوهم أخذاً واربطوهم بالحبال فلمّا أخذوا في القتال عظم المسلمون في أعين الكفار وكثروا حتى انهم يرونهم مثليهم.

وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٤٧﴾ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٤٩﴾

شرح الكلمات :

فئة : طائفة مقاتلة.

فاثبتوا : لقتالها واصمدوا.

واذكروا الله كثيراً : مهللين مكبرين راجين النصر طامعين فيه سائلين الله تعالى ذلك.

تفلحون : تفوزون بالنصر في الدنيا والجنة في الآخرة بعد النجاة من الهزيمة في الدنيا والنار في الآخرة.

ولا تنازعوا : أي لا تختلفوا وأنتم في مواجهة العدو أبداً.

وتذهب ريحكم[1] : أي قوتكم بسبب الخلاف.

---

(١) يرى بعضهم أن الريح ريح الصبا التي قال فيها الرسول ﷺ (نصرت بالصبا، واهلكت عاد بالدبور) يريد أنهم بعدم طاعتهم يحرمون الريح التي بها نصرهم وهو معنى لا بأس به.

خرجوا من ديارهم بطراً : أي للبطر الذي هو دفع الحق ومنعه.

وقال إني جار لكم : أي مجير لكم ومعين على عدوكم.

تراءت الفئتان : أي التقتا ورأت كل منهما عدوها.

نكص على عقبيه : أي رجع إلى الوراء هارباً، لأنه جاءهم في صورة سراقة بن مالك.

إني أرى ما لا ترون : من الملائكة.

والذين في قلوبهم مرض : أي ضعف في إيمانهم وخلل في اعتقادهم.

معنى الآيات :

هذا النداء الكريم موجه إلى المؤمنين وقد أذن لهم في قتال الكافرين، وبدأ بسرية عبدالله بن جحش رضي الله عنه وثنى بهذه الغزوة غزوة بدر الكبرى فلذا هم في حاجة إلى تعليم رباني وهداية إلهية يعرفون بموجبها كيف يخوضون المعارك وينتصرون فيها وفي هذه الآيات الأربع تعليم عال جداً لخوض المعارك والانتصار فيها وهذا بيانها:

١ـ الثبات في وجه العدو والصمود في القتال حتى لكأن المجاهدين جبل شامخ لا يتحرك ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة﴾ أي جماعة مقاتلة ﴿فاثبتوا﴾.

٢ـ ذكر الله تعالى تهليلاً وتكبيراً وتسبيحاً ودعاء[1] وضراعة ووعداً ووعيداً. ﴿واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾ أي تفوزون بالنصر في الدنيا والجنة في الآخرة بعد النجاة من الهزيمة والمذلة في الدنيا، والنار والعذاب في الآخرة.

٣ـ طاعة الله ورسوله في أمرهما ونهيهما ومنه طاعة قائد المعركة ومديرها وهذا من أكبر عوامل النصر حسب سنة الله تعالى في الكون ﴿واطيعوا الله ورسوله﴾.

٤ـ عدم التنازع والخلاف عند التدبير للمعركة وعند دخولها وأثناء خوضها.

٥ـ بيان نتائج التنازع والخلاف وأنها: الفشل الذريع، وذهاب القوة المعبر عنها بالريح

---

(١) الذكر المطلوب هو: ما كان باللسان والقلب معا، في الآية دليل على أن ذكر الله تعالى لا يترك في حال إلاّ في حال التغوّط، قال محمد القرطبي: لو رخّص لأحد في ترك الذكر لرخّص لزكريا إذ قال له تعالى: ﴿ألاّ تكلم الناس ثلاثة أيام إلاّ رمزا واذكر ربّك كثيرا﴾ ولرخص لرجل في الحرب لقوله تعالى: ﴿إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا﴾ وحكم هذا الذكر أن يكون خفيّا إلا أن يكون في بداية الحملة بصوت واحد: الله أكبر فإن ذلك محمود لأنه يرعب العدو ويفتّ في أعضاده.

﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾[١].

٦ـ الصبر على مواصلة القتال والإعداد له وتوطين النفس واعدادها لذلك. ﴿واصبروا إن الله مع الصابرين﴾.

٧ـ الإخلاص في القتال والخروج له لله تعالى فلا ينبغي أن يكون لأي اعتبار سوى مرضاة الله تعالى ﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط﴾[٢].

هذه عوامل النصر وشروط الجهاد في سبيل الله. تضمنتها ثلاث آيات من هذه الآيات الخمس وقوله تعالى في الآية الرابعة (٤٨) ﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب﴾ يذكّر تعالى المؤمنين بحادثة حدثت يوم بدر من أغرب الحوادث لتكون عبرة وموعظة للمؤمنين فيقول عز وجل واذكروا إذ زين الشيطان للمشركين الذين نهيتكم أن تتشبهوا بهم في سيرهم وقتالهم وفي كل حياتهم، فقال لهم: أقدموا على قتال محمد والمؤمنين، ولا ترهبوا ولا تخافوا إنه لا غالب لكم اليوم من الناس، وإني جار لكم أي مجير لكم وناصر ومعين. وكان الشيطان في هذه الساعة فى صورة رجل من أشراف قبيلته يقال له سراقة بن مالك[٣]. فلما تراءت الفئتان لبعضهما البعض وتقدموا للقتال رأى الشيطان جبريل في صفوف الملائكة، فنكص على عقبيه، وكان آخذاً بيد الحارث بن هشام يحدثه يعده ويمنيه بعد ما زين لهم خوض المعركة وشجعهم على ذلك، وولى هارباً فقال له الحارث: ما بك ما أصابك تعال فقال وهو هارب ﴿إني أرى ما لا ترون﴾ يعني الملائكة ﴿إني أخاف الله[٤] والله شديد العقاب﴾

---

(١) المراد بالريح هنا: القوة والنصر، كما يقال: الريح لفلان إذا كان غالبا في أمره ومنه قول الشاعر:

إذا هبّت رياحك فاغتنمها فإنّ لكل خافقة سكون

جملة: لكل خافقة سكون: خبر إن واسمها: ضمير شأن.

(٢) هم أبو جهل وأصحابه الخارجون يوم بدر لنصرة العير حيث خرجوا بالقينات والمغنيات والمعازف.

(٣) هو سراقة بن مالك بن جعشم من بني بكر بن كنانة، وكانت قريش تخاف من بني بكر أن يأتوهم من ورائهم لأنهم قتلوا رجلا منهم فلّما تمثّل لهم الشيطان في صورة سراقة سكنوا لذلك

(٤) قيل: إن الشيطان خاف أن يكون يوم بدر هو اليوم الذي انظر إليه، وقيل: كذب وهو كذوب.

وصدق وهو كذوب وقوله تعالى في نهاية الآية(٤٩) ﴿إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم﴾ أي واذكروا أيها المؤمنون للعبرة والاتعاظ إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم[1] مرض أي ضعف في الإيمان وتخلخل في العقيدة: غر هؤلاء دينهم وإلا لما خرجوا لقتال قريش وهي تفوقهم عدداً وعدة، ومثل هذا الكلام يعتبر عادياً من ضعاف الإيمان والمنافقين المستترين بزيف إيمانهم، فاذكروا هذا،ولا يفت في اعضادكم مثل هذا الكلام،وتوكلوا على الله واثقين في نصره فإنه ينصركم لأنه عزيز لا يغالب ولا يمانع في ما يريده أبداً.حكيم يضع النصر في المتأهلين له بالإيمان والصبر والطاعة له ولرسوله، والإخلاص له في العمل والطاعة.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

١ـ بيان أسباب النصر وعوامله ووجوب الأخذ بها في كل معركة وهي: الثبات وذكر الله تعالى، وطاعة الله ورسوله وطاعة القيادة وترك النزاع والخلاف والصبر والإخلاص.

٢ـ بيان عوامل الفشل والخيبة وهي النزاع والاختلاف والبطر والرياء والاغترار.

٣ـ بيان عمل الشيطان في نفوس الكافرين بتزيينه لهم الحرب ووعده وتمنيته لهم.

٤ـ بيان حال المنافقين وضعفة الإيمان عند وجود[2] القتال ونشوب الحروب.

٥ـ وجوب التوكل على الله والاعتماد عليه مهما كانت دعاوى المبطلين والمثبطين والمنهزمين.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾

(١) لقد اختلف في المراد بالمنافقين هنا، وكذا الذين في قلوبهم مرض إذ يبعد أن يكون في المشركين منافقون، كما يبعد أن يكون في أهل بدر منافقون، والذي يبدو أنّه الراجح: أنّ القائلين هذه المقالة هم منافقون وضعفة إيمان بالمدينة لما رأوا خروج الرسول ﷺ وأصحابه إلى بدر قالوا هذه القولة القبيحة ويكون الظرف «إذ» متعلّق بشديد العقاب لا بزين».

(٢) لا يتعارض هذا القول مع ما رجحناه من أن القائلين هذه المقولة هم منافقون وضعاف إيمان بالمدينة، إذ هذه الحال تنطبق عليهم.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

شرح الكلمات .

إذ يتوفى : أي يقبض أرواحهم لإماتتهم .

وجوههم وأدبارهم : أي يضربونهم من أمامهم ومن خلفهم .

بظلام للعبيد : أي ليس بذي ظلم للعبيد كقوله ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾ .

كدأب آل فرعون : أي دأب كفار قريش كدأب آل فرعون في الكفر والتكذيب والدأب العادة .

لم يك مغيراً نعمة : تغيير النعمة تبديلها بنقمة بالسلب لها أو تعذيب أهلها .

آل فرعون : هم كل من كان على دينه من الأقباط مشاركاً له في ظلمه وكفره .

معنى الآيات :

ما زال السياق مع كفار قريش الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس فيقول تعالى لرسوله ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين[1] كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم[2]﴾ وهم يقولون لهم ﴿وذوقوا عذاب[3] الحريق﴾ وجواب لولا محذوف تقديره(الرأيت أمرا فظيعا)وقوله تعالى

(١) جائز أن يكون المراد من هؤلاء قتلى بدر المشركين وجائز أن يكونوا ممن لم يقتلوا ببدر، وماتوا بمكة وغيرها .

(٢) قال الحسن البصري : المراد من أدبارهم : ظهورهم وقال : (إن رجلا قال لرسول الله ﷺ : يا رسول الله : إني رأيت بظهر أبي جهل مثل الشراك «أي : سير النعل»؟ قال : ذلك ضرب الملائكة) .

(٣) يقال لهم عند قبض أرواحهم، إذ بمجرد أن تقبض الروح يلقى بها في جهنم ، كما يقال لهم يوم القيامة ذلك من قِبل الملائكة .

﴿ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ هو قول الملائكة لمن يتوفونهم من الذين كفروا. أي ذلكم الضرب والتعذيب بسبب ما قدمت أيديكم من الكفر والظلم والشر والفساد وأن الله تعالى ليس بظالم لكم فإنه تعالى لا يظلم أحداً.وقوله تعالى ﴿كدأب آل فرعون[1] والذين من قبلهم﴾ أي دأب هؤلاء المشركين من كفار قريش في كفرهم وتكذيبهم كدأب آل فرعون والذين من قبلهم ﴿كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم﴾ وكفر هؤلاء فأخذهم الله بذنوبهم، وقوله ﴿إن الله قوي شديد العقاب﴾ يشهد له فعله بآل فرعون والذين من قبلهم عاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات وأخيراً أخذه تعالى كفار قريش في بدر أخذ العزيز المقتدر، وقوله تعالى ﴿ذلك بأن الله[2] لم يك[3] مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ إشارة إلى ما أنزله من عذاب على الأمم المكذبة الكافرة الظالمة،وإلى بيان سنته في عباده وهي أنه تعالى لم يكن من شأنه أن يغير نعمة أنعمها على قوم كالأمن والرخاء، أو الطهروالصفاءحتى يغيروا هم ما بأنفسهم بأن يكفروا ويكذبوا، ويظلموا أو يفسقوا ويفجروا،وعندئذ يغير تلك النعم بنقم فيحل محل الأمن والرخاء الخوف والغلاء ومحل الطهر والصفاء الخبث والشر والفساد. هذا إن لم يأخذهم بالإبادة الشاملة والاستئصال التام.وقوله تعالى ﴿وأن الله سميع عليم﴾ أي لأقوال عباده وأفعالهم فلذا يتم الجزاء عادلاً لا ظلم فيه. وقوله تعالى ﴿كدأب آل[4] فرعون والذين من قبلهم كذبوا[5] بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين﴾ هذه الآية تشبه الآية السابقة إلا أنها تخالفها فيما يلي: في الأولى الذنب الذي أخذ به الهالكون كان الكفر، وفي هذه: كان التكذيب، في الأولى: لم يذكر نوع العذاب، وفي الثانية انه الإغراق، في الأولى لم يسجل عليهم سوى الكفر فهو ذنبهم لا غير. وفي الثانية سجل على الكل ذنباً آخر وهو الظلم إذ قال ﴿وكل كانوا ظالمين﴾ أي بكفرهم وتكذيبهم، وصدهم عن سبيل الله وفسقهم عن طاعة الله ورسوله مع زيادة التأكيد

---

(١) الباء في قوله: ﴿ذلك بأنّ الله﴾ سببية والجملة مسوقة للتعليل.

(٢) ﴿لم يك﴾ أي: لم ينبغ له، ولم يصحّ منه لبالغ حكمته وعدله ورحمته.

(٣) ﴿كدأب﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره: دأب هؤلاء كدأب آل فرعون، والدأب: العادة المستمرة.

(٤) ﴿كذبوا﴾ الخ.. تفسير دأبهم الذي فعلوه من تغييرهم لحالهم.

(٥) وجائز أن يكون المراد: كدأب آل فرعون أي: في تعذيبهم عند قبض أرواحهم، وفي قبورهم ويوم القيامة.

والتقرير.

هداية الآيـات

من هدايـة الآيات :

١ـ تقرير عذاب القبر بتقرير العذاب عند النزع.

٢ـ هذه الآية نظيرهـا آية الانعام ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم﴾ أي بالضرب.

٣ـ تنزه الخالق عز وجل عن الظلم لأحد.[١]

٤ـ سنة الله تعالى في أخذ الظالمين وإبدال النعم بالنقم.

٥ـ لم يكن من سنة الله تعالى في الخلق تغيير ما عليه الناس من خير أو شر حتى يكونوا هم البادئين.

٦ـ التنديد بالظلم وأهله، وأنه الذنب الذي يطلق على سائر الذنوب.

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾

شرح الكلمـات :

شر الدواب[٢] : من إنسان أو حيوان الذين ذكر الله وصفهم وهم بنو قريظة.

---

(١) شاهده حديث مسلم عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ أن الله تعالى يقول: ياعبادي إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه).

(٢) الدواب: كل ما يدب على وجه الأرض من حيوان، و﴿عند الله﴾: أي: في علمه وحكمه.

فهم لا يؤمنون : لما علم الله تعالى من حالهم أخبر أنهم يموتون على الكفر.
ينقضون عهدهم : أي يحلونه ويخرجون منه فلا يلتزموا بما فيه.
في كل مرة : أي عاهدوا فيها.
فإما تثقفنّهم : أي ان تجدنّهم، وما مزيدة أدغمت في إن الشرطية.
فشرد : أي فرق وشتت.
يذكرون : أي يتعظون.
فانبذ إليهم : أي اطرح عهدهم.
على سواء[1] : أي على حال من العلم تكون أنت وإياهم فيها سواء، أي كل منكم عالم بنقض المعاهدة.
الخائنين : الغادرين بعهودهم.
سبقوا : أي فاتوا الله ولم يتمكن منهم.

معنى الآيات :

بمناسبة ذكر خصوم الدعوة الإسلامية والقائم عليها وهو النبي ﷺ ذكر تعالى خصوماً لها آخرين غير المشركين من كفار قريش وهم بنو[2] قريظة من اليهود. فأخبر تعالى عنهم أنهم شر الدواب من الإنسان والحيوان ووصفهم محدداً لهم ليعرفوا، وأخبر أنهم لايؤمنون لتوغلهم في الشر والفساد، فقال: ﴿إن شر الدواب عند الله﴾ أي في حكمه وعلمه. ﴿الذين كفروا فهم لا يؤمنون﴾ وخصصهم بوصف آخر خاص بهم فقال: ﴿الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون﴾ وذلك أن النبي ﷺ عاهدهم أول مرة على أن لا يحاربوه ولا يعينوا أحداً على حربه فإذا بهم يعينون قريشاً بالسلاح، ولما انكشف أمرهم اعتذروا معترفين بخطإهم، وعاهدوا مرة أخرى على أن لا يحاربوا الرسول ولا يعينوا من يحاربه فإذا بهم ينقضون عهدهم مرة أخرى ويدخلون في حرب ضده حيث انضموا الى الأحزاب في غزوة الخندق هذا ما دل عليه قوله تعالى ﴿إن شر

(١) أي: جهراً لا سراً حتى يكونوا وأنتم بالعلم بنبذ المعاهدة على حد سواء.
(٢) وبنو النضير كذلك إذ أعانوا قريشا بالسلاح ثم لمّا انكشف أمرهم اعتذروا، وأما قريظة، فقد نقضوا عهدهم مرتين إذ انضموا إلى الأحزاب في حربهم على رسول الله ﷺ والمؤمنين.

الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة﴾[1] أي يعاهدون فيها. ﴿وهم لا يتقون﴾ أي لا يخافون عاقبة نقض المعاهدات والتلاعب بها حسب أهوائهم. وقوله تعالى ﴿فإما تثقفنّهم في الحرب فشرد بهم[2] من خلفهم لعلهم يذكرون﴾ يرشد رسوله آمراً إياه بما يجب أن يتخذه إزاء هؤلاء الناكثين للعهود المنغمسين في الكفر. بحيث لا يخرجون منه بحال من الأحوال. ويشهد لهذه الحقيقة أنهم لما حوصروا في حصونهم ونزلوا منها مستسلمين كان يعرض على أحدهم الإسلام حتى لا يقتل فيؤثر باختياره القتل على الإسلام وماتوا كافرين وصدق الله إذ قال ﴿فهم لا يؤمنون﴾ فهؤلاء إن ثقفتهم في حرب أي وجدتهم متمكناً منهم فاضربهم بعنف وشدة وبلا هوادة حتى تشرد أي تفرق بهم من خلفهم من أعداء الإسلام المتربصين بك الدوائر من كفار قريش وغيرهم لعلهم يذكرون أي يتعظون فلا يفكروا في حربك وقتالك بعد، وقوله ﴿وإما تخافن من قوم خيانة[3] فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين﴾ هذا إرشاد آخر للرسول ﷺ يتعلق بالخطط الحربية الناجحة وهو أنه ﷺ إن خاف من قوم معاهدين له خيانة ظهرت أماراتها وتأكد لديك علاماتها فاطرح تلك المعاهدة ملغياً لها معلناً ذلك لتكون وإياهم على علم تام بإلغائها، وذلك حتى لا يتهموك بالغدر والخيانة، والله لا يحب الخائنين. وقاتلهم مستعيناً بالله عليهم وستكون الدائرة على الناكث الخائن، وهذا ضرب من الحزم وصحة العزم إذ ما دام قد عزم العدو على النقض فقد نقض فليبادر لافتكاك عنصر المباغتة من يده، وهو عنصر مهم في الحروب. وقوله تعالى ﴿ولا يحسبن الذين كفروا[4]﴾ وهم من هرب من بدر من كفار قريش ﴿سبقوا﴾ أي فاتوا فلم يقدر الله تعالى عليهم ﴿إنهم لا يعجزون﴾ أي إنهم لا يعجزون الله بحال فإنه

---

(١) سبحان الله، هذا الوصف الخسيس ما زال ملازما لليهود إلى اليوم فلا يوفون بعهد ولا ذمّة أبداً، وصدق الله العظيم إذ قال عنهم. ﴿كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم﴾.

(٢) يقال: شرد البعير أو الدابة إن فارقت صاحبها، وشرّده إذا عمل على تشريده بسبب، وشردت بني فلان: إذا حملتهم على مفارقة منازلهم قال الشاعر:

أطوّف في الأباطح كل يوم   مخافة أن يُشرّد بي حكيم

(٣) غشا ونقضاً للعهد والآية عامة، فهي مبدأ حربي يأخذ به المسلمون إلى يوم القيامة، ولا وجه لذكر الخلاف هل هي في بني قريظة أو بني النضير؟ وخوف الخيانة هنا معناه: الظن الغالب وذلك بظهور علامات خيانة العدو واضحة.

(٤) أي: من أفلت من وقعة بدر سبق إلى الحياة، وقوله تعالى: ﴿إنهم لا يعجزون﴾ أي: في الدنيا حتى يظفرك الله بهم.

تعالى لا يفوته هارب،ولا يغلبه غالب.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

١ـ بيان أن شر الدواب هم الكفار من أهل الكتاب والمشركين بل هم شر البرية.

٢ـ سنة الله فيمن توغل في الظلم والشر والفساد يُحرم التوبة فلا يموت إلا كافراً.

٣ـ من السياسة الحربية النافعة أن يضرب القائد عدوه بعنف وشدة ليكون نكالاً لغيره من الأعداء.

٤ـ حرمة الغدر والخيانة.

٥ـ جواز إعلان إلغاء المعاهدة وضرب العدو فوراً إن بدرت منه بوادر واضحة بأنه عازم على نقض المعاهدة[1] وذلك لتفويت عنصر المباغتة عليه.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠) ۞ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ۚ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣)﴾

---

(١) روى مسلم عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: (لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدرته ألا ولا غادر أعظم غدراً من أمير عامة) وروى أبو داود والترمذي أن معاوية رضي الله عنه كان بينه وبين الروم عهد، فلما قارب تاريخ العهد الانقضاء سار إليهم بجيشه فجاء عمرو بن عنبسة فقال له سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشدّ عقدة ولا يحلها حتى ينقضي أمدها أو ينبذ إليهم على سواء) فرجع معاوية بالناس.

شـرح الكلمـات :

أعـــدوا : هيئوا وأحضروا .

ما اســتطعتم : ما قدرتم عليه .

مـن قـوة : أي حربية من سلاح على اختلاف أنواعه .

يوفَّ إليـكم : أي أجـره وثوابـه .

وإن جنحـوا للسلم : أي مالوا إلى عدم الحرب ورغبوا في ذلك .

فإن حسبك الله : أي يكفيك شرهم ، وينصرك عليهم .

ألف بين قلوبهم : أي جمع بين قلوب الأنصار بعدما كانت متنافرة مختلفة .

إنه عزيز حكيم : أي غالب على أمره، حكيم في فعله وتدبير أمور خلقه .

معـنى الآيات :

بمناسبة انتهاء معركة بدر وهزيمة المشركين فيها ، وعودتهم إلى مكة وكلهم تغيظ على المؤمنين وفعلاً أخذ أبوسفيان يعد العدة للانتقام . وما كانت غزوة أحد إلا نتيجة لذلك هنا أمر الله تعالى رسوله والمؤمنين بإعداد القوة وبذل ما في الوسع والطاقة لذلك فقال تعالى ﴿واعدوا لهم[1] ما استطعتم من قوة﴾ وقد فسر النبي ﷺ القوة بالرمي بقوله «ألا إن القوة الرمي» قالها ثلاثاً[2] وقوله تعالى ﴿ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾ يخبر تعالى عباده المؤمنين بعد أن أمرهم بإعداد القوة على اختلافها بأن رباطهم للخيل وحبسها أمام دورهم معدة للغزو والجهاد عليها يرهب أعـداء الله من الكـافـرين والمنـافقين أي يخوفهم حتى لا يفكروا في غزو المسلمين وقتالهم ، وهذا ما يعرف بالسلم المسلح ، وهو أن الأمة إذا كانت مسلحة قادرة على القتال يرهبها أعداؤها فلا يحاربونها ، وإن رأوها لاعدة لها ولا عتاد ولا قدرة على ردأعدائـها أغـراهم ذلـك بقتـالها فقاتلوها . وقوله تعالى ﴿وآخرين من دونهم﴾ أي من دون كفار

---

(١) روى مسلم عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي) وعن عقبة أيضاً قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ستفتح عليكم أرضون ويكفيكم الله فلا يعجزه أحدكم أن يلهو بأسهمه) وقال ﷺ : (كل شيء يلهو به الرجل باطل إلا رميه بقوسه وتأديبه فرسه وملاعبته أهله فإنه من الحق) .

(٢) ومما يدل على فضل الرمي في سبيل الله قوله ﷺ في حديث أبي داود والترمذي والنسائي : (إن الله يدخل ثلاثة نفر الجنة بسهم واحد صانعه يحتسب في صنعته الخير والرامي ومُنبِلُه) .

قريش، وقوله ﴿لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾ من الجائز أن يكونوا اليهود أو المجوس أو المنافقين، وأن يكونوا الجن أيضاً، وما دام الله عز وجل لم يُسمهم فلا يجوز أن يقال هم كذا.. بصيغة الجزم، غير أنا نعلم أن أعداء المسلمين كل أهل الأرض من أهل الشرك والكفر من الإنس والجن، وقوله تعالى ﴿وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ إخبار منه تعالى أن ما ينفقه المسلمون من نفقة قلت أو كثرت في سبيل الله التي هي الجهاد يوفّيهم الله تعالى إياها كاملة ولا ينقصهم منها شيئاً فجملة ﴿وأنتم لا تظلمون﴾ جملة خالية ومعناها لا يظلمكم الله تعالى بنقص ثواب نفقاتكم في سبيله هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٦٠) أما الآية الثانية وهي قوله تعالى ﴿وإن جنحوا[1] للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم﴾ فإن الله تعالى يأمر رسوله وهو قائد الجهاد يومئذ بقبول السلم متى طلبها[2] أعداؤه ومالوا إليها ورغبوا بصدق فيها، لأنه ﷺ رسول رحمة لا رسول عذاب،وأمره أن يتوكل على الله في ذلك أي يطيعه في قبول السلم ويفوض أمره إليه ويعتمد عليه فإنه تعالى يكفيه شرّ أعدائه لأنه سميع لأقوالهم عليم بأفعالهم وأحوالهم لا يخفى عليه من أمرهم شيء فلذا سوف يكفي رسوله شر خداعهم إن أرادوا خداعه بطلب السلم والمسالمة، وهذا معنى قوله تعالى في الآيتين (٦٢) و (٦٣) ﴿وإن يريدوا أن يخدعوك﴾ أي بالميل إلى السلم والجنوح[3] إليها ﴿فإن حسبك الله﴾ أي كافيك إنه ﴿هو الذي أيدك بنصره﴾ أي في بدر ﴿وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم﴾ أي جمع بين تلك القلوب المتنافرة المنطوية على الإحن والعداوات ولأقل الأسباب وأتفهها، لقد كان الأنصار يعيشون على عداوة عظيمة فيما بينهم حتى إن حربا وقعت بينهم مائة وعشرين سنة فلما دخلوا في الإسلام اصطلحوا وزالت كل آثار العداوة والبغضاء وأصبحوا جسماً واحداً مَنْ فعل هذا سوى الله تعالى؟ اللهم لا أحد، ولذا قال تعالى لرسوله ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعا﴾ أي من مال

---

(١) ﴿جنحوا﴾: مالوا، والجنوح: الميل أي: إذا مالوا إلى المسالمة التي هي الصلح فمل إليها، اختلف هل هذه الآية منسوخة بآية: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ والصحيح، والذي به العمل أن الآية محكمة غير منسوخة، وأنّ المسلمين إذا كانوا في حالة ضعف يحتاجون فيها إلى تقوية بعقد هدنة أو مصالحة لدفع ضرر أو تحصيل نفع ظاهر وهم في حاجة إلى ذلك فإن لهم أن يجنحوا للسلم وإن كانوا أقوياء قادرين فلا يحلّ لهم إلاّ إنفاذ أمر الله تعالى بقتال العدو حتى يسلم أو يستسلم لحكم الإسلام.

(٢) السلم: مؤنثه ولذا عاد الضمير إليها مؤنثاً في قوله: ﴿فاجنح لها﴾.

(٣) وهم يضمرون في نفوسهم نية الغدر بك والمكر ليخدعوك بذلك فامض في صلحك والله حسبك.

صامت وناطق ﴿ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم﴾ .

هداية الآيـات

من هداية الآيـات :

١ـ وجوب إعداد القوة وهي في كل زمان بحسبه إن كانت في الماضي الرمح والسيف ورباط الخيل فهي اليوم النفاثة المقاتلة والصاروخ، والهدروجين والدبابة والغواصة والبارجة .

٢ـ تقرير مبدأ : السلم المسلح ، إرجع إلى شرح الآيات .

٣ـ لا يخلو المسلمون من أعداء ما داموا بحق مسلمين ، لأن قوى الشر من إنس وجن كلها عدو لهم .

٤ـ نفقة الجهاد خير نفقة وهي مضمونة التضعيف .

٥ـ جواز قبـول[1] السلم في ظروف معينـة ، وعـدم قبوله في أخرى وذلك بحسب حـال المسلمين قوة وضعفاً .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾

(١) المراد بالسلم : المهادنة ، والموادعة ، والصلح المؤقت ، وقد تقدم بيانه ، والإمام الشافعي يرى أن لا تزيد مدّة المسالمة على عشر سنين قياسا على صلح الحديبية إذ كانت المدة عشر سنين لا غير.

شـرح الكلمـات :

حسبك الله[1] : أي كافيك الله كل ما يهمك من شأن أعدائك وغيرهم .

ومن اتبعك من المؤمنين : أي الله حسبهم كذلك أي كافيهم ما يهمهم من أمر أعدائهم .

حرض المؤمنين على القتال: أي حثهم على القتال مرغباً لهم مرهباً .

صابـرون : أي على القتال فلا يضعفون ولا ينهزمون بل يثبتون ويقاتلون .

لا يفقهـون : أي لا يعرفون أسرار القتال ونتائجه بعد فنونه وحذق أساليبه .

معـنى الآيات :

ينادي الرب تبارك وتعالى رسوله بعنوان النبوة التي شرفه الله بها على سائر الناس فيقول ﴿يا أيها النبي﴾ ويخبره بنعم الخبر مطمئناً إياه وأتباعه من المؤمنين بأنه كافيهم أمر أعـدائهم فما عليهم إلا أن يقاتلوهم ما دام الله تعالى ناصرهم ومؤيدهم عليهم ، فيقول: ﴿حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾ ثم يُناديه ثانية قائلا ﴿يا أيها النبي﴾ ليأمره بالأخذ بالأسباب الموجبة للنصر بإذن الله تعالى وهي تحريض المؤمنين على القتال وحثهم عليه وترغيبهم فيه فيقول ﴿حرض[2] المؤمنين على القتال﴾ ويخبره آمراً له ولأتباعه المؤمنين بأنه ﴿إن يكن﴾ أي يوجد منهم في المعركة ﴿عشرون[3] صابرون يغلبوا مائتين﴾ ، وإن يكن منهم مائة صابرة يغلبوا ألفاً من الكافرين ، ويعلل لذلك فيقول ﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾ أي لا يفقهون أسرار القتال وهي أن يعبد الله تعالى ويرفع الظلم من الأرض ويتخذ الله من المؤمنين شهداء فينزلهم منازل الشهداء عنده ، فالكافرون لا يفقهون هذا فلذا

---

(١) ﴿حسبك﴾ خبر مقدم ولفظ الجلالة مبتدأ أي : الله حسبك بمعنى كافيك : ﴿ومن اتبعك﴾ يصح أن يكون في موضع نصب عطفاً على الكاف في (حسبك)، والصواب أنها في موضع رفع علّى الابتداء والخبر محذوف والتقدير: ومن اتبعك من المؤمنين حسبهم الله أيضاً .

(٢) يقال : حرّضه على كذا: حثه وحضّه وحارض على الأمر وواظب وواصب وأكب بمعنى ، والحارض: الذي أشرف على الهلاك ومنه : (حتى تكون حرضاً) أي : تذوب غمّاً فتقارب الهلاك فتكون من الهالكين .

(٣) إن يكن منكم عشرون صابرون . . . ﴾ الخ لفظ مضمّن وعداً إلهياً مشروط بشرط الصبر، إذ تقدير الكلام : إن يصبر منكم عشرون صابرون الخ .

هم لا يصبرون على القتال لأنهم يقاتلون لأجل حياتهم فقط فإذا خافوا عنها تركوا القتال طلباً للحياة زيادة على ذلك أنهم جهال لا يعرفون أساليب الحرب ولا وسائلها الناجعة بخلاف المؤمنين فإنهم علماء، علماء بكل شيء هذا هو المفروض، وإن ضَعُفَ الإيمان ضعف تبعاً له الفقه والعلم وحل الجهل والضعف كما هومشاهداليوم في المسلمين وقوله تعالى ﴿الآن خفف[1] الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً[2] فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين﴾ الآن بعد علمه تعالى بضعفكم حيث لا يقوى الواحد على قتال عشرة، ولا العشرة على قتال مائة ولا المائة على قتال الألف خفف تعالى رحمة بكم ومنّة عليكم، فنسخ[3] الحكم الأول بالثاني الذي هو قتال الواحد للإثنين،والعشرة للعشرين والمائة للمائتين، والألف للألفين، ومفاده أن المؤمن لا يجوز له أن يفر من وجه اثنين ولكن يجوز له أن يفر إذا كانوا أكثر من اثنين وهكذا سائر النِسب فالعشرة يحرم عليهم ان يفروا من عشرين ولكن يجوز لهم أن يفروا من ثلاثين أو أربعين مثلاً. وهذا من باب رفع الحرج فقط وإلا فإنه يجوز للمؤمن ان يقاتل عشرة أو أكثر، فقد قاتل ثلاثة آلاف صحابي يوم مؤتة مائة وخمسين ألفاً من الروم والعرب المتنصرة وقوله تعالى ﴿بإذن الله﴾ أي بمعونته وتأييده إذ لا نصر بدون عون من الله تعالى وإذن، وقوله ﴿والله مع الصابرين﴾ أي بالتأييد والنصر،والصبر شرط في تأييد الله وعونه فمن لم يصبر على القتال فليس له على الله وعد في نصره وتأييده.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

١ـ لا كافي إلا الله تعالى، ومن زعم أن هناك من يكفي سوى الله تعالى فقد أشرك.

٢ـ وجوب تحريض المؤمنين على الجهاد وحثهم عليه في كل زمان ومكان.

٣ـ حرمة هزيمة الواحد من الواحد والواحد من الاثنين، ويجوز ما فوق ذلك.

---

(١) لما شق على المؤمنين ثبات العشرة للمائة والعشرين للمائتين وثبات المائة للألف، خفّف الله تعالى عنهم وأنزل قوله: ﴿الآن خففّ الله عنكم..﴾ فرخّص للواحد أن يفر من أكثر من اثنين وهكذا إن شاء، فإنه لا حرج.

(٢) قرىء ضَعفا بفتح الضاد وضمها، وقيل إن الفتح في ضعف العقول والضم في ضعف الأجسام، والصحيح أنهما لغتان فصيحتان.

(٣) لا بأس أن يسمى هذا نسخاً لأنه حكم جديد غاير الأوّل ويسمى تخفيفاً وهو حسن أيضاً.

٤ـ وجوب تثقيف المجاهدين عقلاً وروحاً وصناعة.

٥ـ وجوب الصبر في ساحة المعارك ويحرم الهزيمة إذا كان عدد المؤمنين اثني عشر ألف مقاتل أو أكثر إذ هذا العدد لا يغلب[1] من قلة بإذن الله تعالى.

٦ـ معية الله بالعلم والتأييد والنصر للصابرين دون الجزعين.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾

شرح الكلمات:

أسرى : جمع أسير وهو من أخذ في الحرب يشد عادة بإسار وهو قيد من جلد فاطلق لفظ الأسير[2] على كل من أخذ في الحرب.

حتى يثخن في الأرض : أي تكون له قوة وشدة يرهب بها العدو.

عرض الدنيا : أي المال لأنه عارض ويزول فلا يبقى.

لولا كتاب من الله سبق : وهو كتاب المقادير بأن الله تعالى أحل لنبيّ هذه الأمة الغنائم.

فيما أخذتم : أي بسبب ما أخذتم من فداء أسرى بدر.

حلالاً طيباً : الحلال هو الطيب فكلمة طيباً تأكيد لحليّة اقتضاها المقام.

واتقوا الله : أي بطاعته وطاعة رسوله في الأمر والنهي.

معنى الآيات:

ما زال السياق في أحداث غزوة بدر من ذلك أن أصحاب الرسول ﷺ إلا عمر وسعد

---

(١) روى أحمد وأبو داود والترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: (لن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة) والمراد أن الغلب إن حصل لن يكون سببه قلة العدد وإنما يكون لأمر آخر كعدم الصبر أو عدم الأخذ بأسباب النصر التي يتم بها النصر حسب سنّة الله.

(٢) أسير: كقتيل وجريح، ويجمع على أسرى كقتلى وجرحى، وعلى أُسارى بضم الهمزة وفتحها، والضم أشهر.

بن معاذ رضي الله عنهما رغبوا في مفاداة الأسرى بالمال للظروف المعاشية القاسية التي كانوا يعيشونها، وكانت رغبتهم في الفداء بدون علم من الله تعالى بإحلالها أو تحريمها أما عمر فكان لا يعثر على أسير إلا قتله وأما سعد فقد قال (الاثخان في القتال أولى من استبقاء الرجال) ولما تم الفداء نزلت هذه الآية الكريمة تعاتبهم أشد العتاب فيقول تعالى ﴿ما كان لنبي[1]﴾ أي ما صح منه ولا كان ينبغي له أن يكون له أسرى حرب يبقيهم ليفاديهم أو يمن عليهم مجاناً ﴿حتى يثخن[2] في الأرض﴾ أرض العدو قتلاً وتشريداً فإذا عرف بالبأس والشدة وهابه الأعداء جاز له الأسر أي الإبقاء على الأسرى أحياء ليمن عليهم بلا مقابل أو ليفاديهم بالمال، وقوله تعالى ﴿تريدون عرض الدنيا﴾ هذا من[3] عتابه تعالى لهم، إذ ما فادوا الأسرى إلا لأنهم يريدون حطام الدنيا وهو المال، وقوله ﴿والله يريد الآخرة﴾ فشتان ما بين مرادكم ومراد ربكم لكم تريدون العرض الفاني والله يريد لكم النعيم الباقي، وقوله تعالى ﴿والله عزيز حكيم﴾ أي غالب على أمره ينصر من توكل عليه وفوّض أمره إليه، حكيم فى تصرفاته فلا يخذل أولياءه وينصر أعداءه فعليكم أيها المؤمنون بطلب مرضاته بترك ما تريدون لما يريد هو سبحانه وتعالى، وقوله تعالى ﴿لولا كتاب[4] من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾ أي لولا أنه مضى علم الله تعالى بحلية الغنائم لهذه الأمة وكتب ذلك في اللوح المحفوظ لكان ينالكم جزاء رضاكم بالمفاداة وأخذ الفدية عذاب عظيم.

وقوله تعالى ﴿فكلو مما غنمتم[5] حلالاً طيباً﴾ إذن منه تعالى لأهل بدر أن يأكلوا مما

---

(١) هذه الآية نزلت يوم بدر عتاباً من الله تعالى لأصحاب نبيّه محمد ﷺ إذ لم يثخنوا في قتل المشركين حتى يوجد منهم أسرى رغبوا في مفاداتهم منا بالمال.

(٢) الإثخان في الشيء: المبالغة فيه والإكثار منه والمراد به هنا: المبالغة في قتل المشركين حتى لا يبقى منهم أسير في ساحة المعركة.

(٣) روى مسلم أنّ النبي ﷺ قال لبعض أصحابه ومن بينهم أبو بكر وعمر (ما ترون في هؤلاء الأسرى؟ فقال أبو بكر يارسول الله هم بنو العم والعشيرة أرى أن يؤخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار فعسى الله أن يهديهم للإسلام فقال رسول الله ﷺ ما ترى يا ابن الخطاب؟ قال: لا والله يا رسول الله ما أرى الذي رأى أبو بكر ولكني أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم، فتمكّن عليا من عقيل فيضرب عنقه وتمكني من فلان فأضرب عنقه فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديده فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت فلما كان من الغد جئت وإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان.. إلى أن قال: وأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ما كان لنبي﴾ إلى قوله: ﴿حلالا طيّبا﴾.

(٤) من ذلك أن الله تعالى لا يعذب قوماً حتى يبيّن لهم ما يتقون.

(٥) هذا الإذن واقع بعد تخميس الغنيمة لا على إطلاقه.

غنموا، وحتى ما فادوا به الأسرى وهي منة منه سبحانه وتعالى، وقوله تعالى ﴿واتقوا الله﴾ أمر منه عز وجل لهم بتقواه بفعل أوامره وأوامر رسوله وترك نواهيهما، وقوله ﴿إن الله غفور رحيم﴾ إخبار منه تعالى أنه غفور لمن تاب من عباده رحيم بالمؤمنين منهم، وتجلى ذلك في رفع العذاب عنهم حيث غفر لهم وأباح لهم ما رغبوا فيه وأرادوه. وفي الحديث: «لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفر لكم».

هداية الآيات

من هداية الآيات:

١- إرشاد الله تعالى لقادة الأمة الإسلامية في الجهاد أن لا يفادوا الأسرى وأن لا يمنوا عليهم بإطلاقهم إلا بعد أن يثخنوا في أرض العدو قتلاً وتشريداً فإذا خافهم العدو ورهبهم عندئذ يمكنهم أن يفادوا الأسرى أو يمنوا عليهم.

٢- التزهيد في الرغبة في الدنيا لحقارتها، والترغيب في الآخرة لعظم أجرها.

٣- إباحة الغنائم.

٤- وجوب تقوى الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله في الأمر والنهي.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٠) وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١)﴾

شرح الكلمات:

من الأسرى: أسرى بدر الذين أخذ منهم الفداء كالعباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه.

إن يعلم الله في قلوبكم خيراً: أي إيماناً صادقاً وإخلاصاً تاماً.

مما أخذ منكم: من مال الفداء.

وإن يريدوا خيانتك : أي الأسـرى
فقد خانوا الله من قبل : أي من قبل وقوعهم في الأسر وذلك بكفرهم في مكة.
فأمكن منهم : أي أمكنكم أنتم أيها المؤمنون منهم فقتلتموهم وأسرتموهم.
والله عليم حكيم : عليم بخلقه حكيم في صنعه وتدبيره.

معنى الآيـتين :

هذه الآية الكريمة نزلت في العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه إذ كان يقول هذه الآية نزلت في وذلك أنه بعد أن وقع في الأسر[1] أسلم وأظهر إسلامه وطلب من الرسول ﷺ أن يرد عليه ما أخـذ منـه من فدية فأبى عليه رسـول الله ﷺ ذلك فأنزل الله تعالى قوله ﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً﴾ أي اسلاماً حقيقياً ﴿يؤتكم خيراً﴾ أي مالاً خيراً ﴿مما أخذ منكم[2]، ويغفر لكم﴾ ذنوبكم التي كانت كفراً بالله ورسـولـه، ثم حربـاً على الله ورسـولـه، ﴿والله غفور﴾ يغفر ذنوب عباده التائبين ﴿رحيم﴾ بعباده المؤمنين فلا يؤاخذهم بعد التوبة عليها بل يرحمهم برحمته في الدنيا والآخرة. وقوله تعالى ﴿وإن[3] يريدوا خيانتك﴾ أي وإن يُرد هؤلاء الأسرى الذين أخذ منهم الفداء ونطقوا بالشهادتين مظهرين إسلامهم خيانتك والغدر بك بإظهار إسلامهم ثم إذا عادوا إلى ديارهم عادوا إلى كفرهم، فلا تبال[4] بهم ولا ترهب جانبهم فإنهم قد خانوا الله من قبـل بكفرهم وشركهم ﴿فأمكن منهم﴾ المؤمنين وجعلهم في قبضتهم وتحت إمْرَتهم، ولو عادوا لعاد الله تعالى فسلطكم عليهم وأمكنكم منهم وقوله تعالى ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عليم بنيات القوم وتحركاتهم حكيم فيما يحكم به عليهم ألا فليتقوه عز وجل وليحسنوا

---

(١) أسره رضي الله عنه أبو اليسر كعب بن عمرو أخو بني سلمة، وكان رجلا قصيرا والعباس رضي الله عنه ضخما طويلا فلما جاء به إلى رسول الله ﷺ قال له: (لقد أعانك عليه ملك) وقال الرسول ﷺ للعباس: (افد نفسك فقال: لقد كنت مسلما يا رسول الله فقال له الرسول ﷺ: (والله أعلم بإسلامك فإن تكن كما تقول فالله يجزيك بذلك، فأمّا ظاهر أمرك فكان علينا فافد نفسك وابني أخويك نوفل وعقيل) ففعل وفيه نزلت هذه الآية. ﴿يا أيها النبي قل...﴾ الخ.

(٢) روى مسلم أنه لما قدم على النبي ﷺ مال من البحرين قال له العباس إني فاديت نفسي وفاديت عقيلا فقال له الرسول ﷺ (خذ فبسط ثوبه وأخذ ما استطاع أن يحمله، وقال: هذا خير مما أخذ مني وأنا أرجو أن يغفر الله لي).

(٣) في هذه الآية تطمين لنفس الرسول ﷺ وليبلغ مضمونه إلى الأسرى فيعلموا أنهم لا يغلبون الله ورسوله. والخيانة: نقض العهد، وما في معنى العهد كالأمانة ونحوها.

(٤) هذا هو جواب إن الشرطية المحذوف، وقد دلّ عليه: ﴿فقد خانوا الله من قبل﴾.

إسلامهم ويصدقوا في إيمانهم فذلك خير لهم.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين :

١ـ فضل العباس عم رسول الله ﷺ لنزول الآية في حقه وشأنه.

٢ـ فضل إضمار الخير والنيات الصالحة.

٣ـ إطلاق لفظ الخير على الإسلام والقرآن وحقاً هما الخير والخير كله.

٤ـ ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوضه خيراً منه.

٥ـ الله جل جلاله: لا يغلبه غالب ولا يفوته هارب ألا فليتق وليتوكل عليه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

شـرح الكلمـات

آمنـوا	: صدقوا الله ورسوله وآمنوا بلقاء الله وصدقوا بوعده ووعيده .
وهاجــروا	: أي تركوا ديارهم والتحقوا برسول الله ﷺ بالمدينة المنورة .
في سبيـل الله	: أي من أجل ان يعبد الله ولا يعبد معه غيره وهو الإسلام .
آووا	: أي آووا المهاجرين فضموهم إلى ديارهم ونصروهم على أعدائهم .
وإن استنصروكم	: أي طلبوا منكم نصرتهم على أعدائهم .
ميثـــاق	: عهد أي معاهدة سلم وعدم اعتداء .
إلاَّ تفعلوه	: أي إن لم توالوا المسلمين ، وتقاطعوا الكافرين تكن فتنة[1] .
أولوا الأرحام	: أي الأقارب من ذوي النسب .
بعضهم أولى ببعض	: في التوارث أي يرث بعضهم بعضاً .

معنى الآيات :

بمناسبة انتهاء الحديث عن أحداث غزوة بدر الكبرى ذكر تعالى حال المؤمنين في تلك الفتـرة من الزمن وأنهم مختلفون في الكمال ، فقال وقوله الحق ﴿إن الذين آمنوا وهـاجـروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾ فهذا صنف : جمع أهله بين الإيمان والهجرة والجهاد بالمال والنفس ، والصنف الثاني في قوله تعالى ﴿والذين آووا ونصروا[2]﴾ أي آووا الرسول ﷺ والمهاجرين في ديارهم ونصروهم . فهذان صنفا المهاجرين والأنصار وهما أكمل المؤمنين وأعلاهم درجة ، وسيذكرون في آخر السياق مرة أخرى ليذكر لهم جزاؤهم عنـد ربهم ، وقوله تعالى فيهم ﴿أولئك بعضهم أولياء بعض﴾ أي في النصرة والموالاة والتوارث إلا أن التوارث نسخ بقوله تعالى في آخر آية من هذا السياق ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ والصنف الثـالث من أصنـاف المؤمنين المذكور في قوله تعالى ﴿والـذين آمنوا ولم يهاجروا﴾ أي آمنوا بالله ورسوله والدار الآخرة ثم رضوا بالبقاء بين

---

(١) محنة الحرب وما يتبع ذلك من الغارات والجلاء والأسر ، وما إلى ذلك من ويلات الحروب ، والفساد الكبير : هو ظهور الشرك .

(٢) قوله : ﴿والذين آووا ونصروا﴾ معطوف على اسم إنّ والخبر : جملة ﴿أولئك بعضهم أولياء بعض﴾ .

ظهراني الكافرين فلم يهجروا ديارهم وأموالهم ويلتحقوا بدار الهجرة بالمدينة النبوية، فهؤلاء الناقصون في إيمانهم بتركهم الهجرة، يقول تعالى فيهم لرسوله والمؤمنين ﴿مالكم من ولايتهم من شيء﴾[1] فلا توارث ولا موالاة تقتضي النصرة والمحبة حتى يهاجروا إليكم ويلتحقوا بكم، ويستثني تعالى حالة خاصة لهم وهي أنهم إذا طلبوا نصرة المؤمنين في دينهم فإن على المؤمنين أن ينصروهم وبشرط أن لا يكون الذي اعتدى عليهم وآذاهم فطلبوا النصرة لأجله أن لا يكون بينه وبين المؤمنين معاهدة سلم وترك الحرب ففي هذه الحال على المؤمنين أن يوفوا بعهدهم ولا يغدروا فينصروا أولئك القاعدين عن الهجرة هذا ما دل عليه قوله تعالى ﴿وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير﴾ ذيل الكلام بهذه الجملة لإعلام المؤمنين الكاملين كالناقصين بأن الله مطلع على سلوكهم خبير بأعمالهم وأحوالهم فليراقبوه في ذلك حتى لا يخرجوا عن طاعته وقوله تعالى في الآية (٧٣) ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾[2] يتناصرون ويتوارثون. وبناء على هذا يقول تعالى ﴿إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾ أي إن لا تفعلوا ما أمرتم به من مولاة المؤمنين محبة ونصرة وولاء، ومن معاداة الكافرين بغضا وخذلاناً لهم وحرباً عليهم تكن فتنة عظيمة لا يقادر قدرها وفساد كبير لا يعرف مداه، والفتنة الشرك والفساد المعاصي وقوله تعالي في الآية (٧٤) ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً﴾ هذا هو الصنف الأول أعيد ذكره ليذكر له جزاؤه عند ربه بعد تقرير إيمانهم وتأكيده فقال تعالى فيهم ﴿أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة﴾ أي لذنوبهم بسترها وعدم المؤاخذة عليها ﴿ورزق كريم﴾ ألا وهو نعيم الجنة في جوار ربهم سبحانه وتعالى والصنف الرابع من أصناف المؤمنين ذكره تعالى بقوله ﴿والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم﴾ فهذا الصنف أكمل من الصنف الثالث ودون الأول والثاني، إذ الأول والثاني فازوا بالسبق، وهؤلاء جاءوا من بعدهم ولكن لإيمانهم وهجرتهم وجهادهم ألحقهم الله تعالى

---

(١) الولاية: بكسر الواو وفتحها لغتان، وقرىء بهما معاً وهي هنا بمعنى النسب والنصرة، وتكون الولاية بالكسرة والفتح أيضاً بمعنى الإمارة وفي الآية دليل على أن المسلم لا يلي عقد نكاح أخته الكافرة لانعدام الموالاة بينهما، والكافر لا يلي عقد نكاح أخته المسلمة.

(٢) روى الترمذي أنّ النبي ﷺ قال: (إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلاّ تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير قالها ثلاثاً) وقال الترمذي هو حديث غريب.

بالسابقين فقال ﴿فأولئك منكم﴾ وقوله تعالى ﴿وأولوا الأرحام[1] بعضهم أولى ببعض﴾ أي في الارث وبها نسخ التوارث بالهجرة والمعاقدة، واستقر الإرث بالمصاهرة والولاء، والنسب إلى يوم القيامة، وقوله تعالى ﴿في كتاب الله﴾ أي في حكمه وقضائه المدون في اللوح المحفوظ، وقوله ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ هذه الجملة تحمل الوعد والوعيد الوعد لأهل الإيمان والطاعة، والوعيد لأهل الشرك والمعاصي.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

١ـ بيان تفاوت المؤمنين في كمالاتهم وعلو درجاتهم عند ربهم.

٢ـ أكمل المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان والهجرة والجهاد وسبقوا لذلك وهم المهاجرون الأولون والذين جمعوا بين الإيمان والإيواء والنصرة والجهاد وهم الأنصار.

٣ـ دون ذلك من آمنوا وهاجروا وجاهدوا ولكن بعد صلح الحديبية.

٤ـ وأدنى أصناف المؤمنين من آمنوا ولم يهاجروا وهؤلاء على خطر عظيم.

٥ـ وجوب نصرة المؤمنين بموالاتهم ومحبتهم ووجوب معاداة الكافرين وخذلانهم وبغضهم.

٦ـ نسخ التوارث بغير المصاهرة والنسب والولاء.

سُورَةُ التَّوْبَةِ

مدنيــة
وآياتهـا مائة وثلاثون آيـة

بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾

---

(١) أولوا: واحدها ذو، والرحم مؤنثة والجمع أرحام وهي مقر الولد في البطن والمراد بأولي الأرحام هنا: العصبات كالآباء والأبناء والإخوة والأعمام وأصحاب الفروض وهم الجد والأب والأم والبنت والأخت والزوجة يشهد لهذا قوله ﷺ: (ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولي رجل ذكر) أما أولوا الأرحام المختلف في إرثهم فهم: أولاد البنات وأولاد الاخوات وبنات الأخ، والعمة والخالة والعم أخو الأب لأم والجد أبو الأم والجدة أم الأم. هذا ومن أهل العلم كابن كثير وغيره من أبقى اللفظ على ظاهره فجعل المراد من أولي الأرحام: القرابة الناشئة عن الأمومة على خلاف ما قدّمناه عن القرطبي من أنّ المراد بأولي الأرحام العصبات دون المولودين بالرحم، وعلى رأي ابن كثير أن الآية ليست واردة في التوارث كما هو رأي مالك وإنما هي في الموالاة والنصرة.

فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾

شرح الكلمات :

براءة[1] : أي هذه براءة بمعنى تبرؤ وتباعد وتخلص

عاهدتم : أي جعلتم بينكم وبينهم عهداً وميثاقاً.

فسيحوا في الأرض[2] : أي سيروا في الأرض طالبين لكم الخلاص.

مخزي الكافرين : مذل الكافرين ومهينهم.

وأذان من الله : إعلام منه تعالى.

يوم الحج الأكبر : أي يوم عيد النحر.

لم ينقصوكم شيئاً : أي من شروط المعاهدة وبنود الاتفاقية.

ولم يظاهروا عليكم أحداً : أي لم يعينوا عليكم أحداً.

---

(١) يقال: برئت من الشيء أبرأ براءة فأنا بريء منه إذا أزلته عن نفسي وقطعت سبب ما بيني وبينه. وبراءة هنا: مبتدأ، وجوّز الابتداء به وهو نكرة: الوصف. والخبر ﴿إلى الذين﴾ ويصح أن تكون براءة خبر، والمبتدأ محذوف تقديره: هذه براءة.

(٢) أي قل لهم: سيحوا في الأرض أي: سيروا في الأرض آمنين غير خائفين، يقال: ساح يسيح سياحة، وسيوحاً وسيحاناً ومنه السّيح في الماء الجاري المنبسط.

معنى الآيات :

هذه السورة القرآنية الوحيدة التي خلت[1] من البسملة لأنها مفتتحة بآيات عذاب فتنافى معها ذكر الرحمة، وهذه السورة من آخر ما نزل من سور القرآن الكريم وقد بعث رسول الله ﷺ علياً وبعض الصحابة في حج سنة تسع يقرأون هذه الآيات في الموسم،وهي تعلم المشركين أن من كان له عهد مطلق بلا حد شهر أو سنة مثلاً أو كان له عهد دون أربعة أشهر، أو كان له عهد فوق أربعة أشهر ونقضه **تُعْلِمُهُم** بأن عليهم أن يسيحوا في الأرض بأمان كامل مدة أربعة أشهر فإن أسلموا فهو خير لهم وإن خرجوا من الجزيرة فإن لهم ذلك وإن بقوا كافرين فسوف يؤخذون ويقتلون حيثما وجدوا في ديار الجزيرة التي أصبحت دار إسلام بفتح مكة ودخول أهل الطائف في الإسلام هذا معنى قوله تعالى ﴿براءة من الله ورسوله﴾ أي واصلة ﴿إلى الذين عاهدتم[2] من المشركين فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾ تبدأ من يوم الإعلان عن ذلك وهو يوم العيد عيد الأضحى. وقوله تعالى ﴿واعلموا أنكم غير معجزي الله﴾ أي غير فائتيه ولا هاربين من قهره وسلطانه عليكم هذا أولاً، وثانياً ﴿وأن الله مخزي الكافرين﴾ أي مذلهم وقوله تعالى ﴿وأذان من الله ورسوله﴾ أي محمد ﷺ والأذان الإعلان والإعلام، ﴿إلى الناس﴾ وهم المشركون ﴿يوم الحج[3] الأكبر[4]﴾ أي يوم عيد الأضحى حيث تفرّغ الحجاج للاقامة بمنى للراحة والاستجمام قبل العودة إلى ديارهم، وصورة الإعلان عن تلك البراءة هي قوله تعالى ﴿أنّ الله بريء[5] من المشركين ورسوله﴾ أي كذلك بريء من المشركين وعليه ﴿فإن تبتم﴾ أيها المشركون الى الله تعالى بتوحيده والإيمان برسوله وطاعته وطاعة رسوله ﴿فهو خير لكم﴾ من الإصرار على الشرك

---

(١) روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سألت عليا رضي الله عنه: لِمَ لَمْ يكتب في براءة بسم الله الرحمن الرحيم قال: لأنّ بسم الله الرحمن الرحيم أمان، وبراءة نزلت بالسيف ليس فيها أمان. هذا أحد خمسة أوجه في عدم كتابة البسملة في براءة وهو أوجهها، وهو ما ذكرناه في التفسير.

(٢) نسبت المعاهدة إلى المؤمنين كافة، والمعاهد هو الرسول ﷺ لأنه المتولي لها ولسائر العقود. وكان رضاهم بها واجبا عليهم فلذا نسبت إليهم.

(٣) وقيل إنه يوم عرفة، والصحيح ما ذكرناه في التفسير وأنه يوم النحر لحديث ابن عمر عن أبي داود إذ قال: (وقف النبي ﷺ يوم النحر في الحجة التي حجّ فيها فقال: أي يوم هذا؟ فقالوا: يوم النحر فقال: هذا يوم الحج الأكبر).

(٤) اختلف في العلة في تسمية الحج بالأكبر، وأحسن الأقوال أنه قيل فيه الأكبر: لأنه حج حضره الرسول ﷺ وحضرت فيه أمة الإسلام التي وجدت في تلك السنة فحجّ أكبر عدد في ذلك العام.

(٥) قالت العلماء: في الآية بيان جواز قطع المعاهدة بين المسلمين والكافرين لأحد أمرين: الأول: أن تنقضي المدة المعاهد عليها فنعلمهم بانقضائها وبالحرب عليهم. والثاني: أن نخاف غدرهم لظهور علامات تدلّ عليه.

والكفر والعصيان، ﴿وإن توليتم﴾ أي أعرضتم عن الإيمان والطاعة ﴿فاعلموا أنكم غير معجزي الله﴾ بحال من الأحوال فلن تفوتوه ولن تهربوا من سلطانه فإن الله تعالى لا يغلبه غالب، ولا يفوته هارب ثم قال تعالى لرسوله ﴿وبشر الذين كفروا بعذاب أليم﴾ أي أخبرهم به فإنه واقع بهم لا محالة إلا أن يتوبوا وقوله تعالى في الآية الرابعة (٤) ﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم﴾ من شروط المعاهدة ﴿شيئاً ولم يظاهروا﴾ أي لم يعاونوا ﴿عليكم أحداً﴾ لا برجال ولا بسلاح ولا حتى بمشورة ورأي فهؤلاء لم يبرأ الله تعالى منهم ولا رسوله، وعليه ﴿فأتموا إليهم عهدهم[1] إلى مدتهم﴾ أي مدة أجلهم المحدد بزمن معين فوفوا لهم ولا تنقضوا لهم عهداً إلى أن ينقضوه هم بأنفسهم، أو تنتهي مدتهم وحينئذ إما الإسلام وإما السيف إذ لم يبق مجال لبقاء الشرك في دار الإسلام وقبته.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

١ـ جواز عقد المعاهدات بين المسلمين والكافرين إذا كان ذلك لدفع ضرر محقق عن المسلمين، أو جلب نفع للإسلام والمسلمين محققاً كذلك.

٢ـ تحريم الغدر والخيانة، ولذا كان إلغاء المعاهدات علنياً وإمداد أصحابها بمدة ثلث سنة يفكرون في أمرهم ويطلبون الأصلح لهم.

٣ـ وجوب الوفاء بالمعاهدات ذات الآجال إلى أجلها إلا أن ينقضها المعاهدون.

٤ـ فضل التقوى وأهلها وهو اتقاء سخط الله بفعل المحبوب له تعالى وترك المكروه.

فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

(١) في الآية إشارة إلى أن هناك من خاس بعهده أي: نقضه، ومنهم من ثبت عليه.

وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾

شرح الكلمات :

فإذا انسلخ الأشهر[1] الحرم	: انقضت وخرجت الأشهر الأربعة التي أمنتم فيها المشركين .
حيث وجدتموهم	: أي في أي مكان لقيتموهم في الحل أو الحرم .
وخذوهم	: أي أسرى .
وأحصروهم	: أي حاصروهم حتى يسلموا أنفسهم .
واقعدوا لهم كل مرصد[2]	: أي اقعدوا لهم في طرقاتهم وارصدوا تحركاتهم .
فإن تابوا	: أي آمنوا بالله ورسوله .
فخلوا سبيلهم	: أي اتركوهم فلا حصار ولا مطاردة ولا قتال .
استجارك	: أي طلب جوارك أي حمايتك .
مأمنه	: أي المكان الذي يأمن فيه .
فما استقاموا لكم	: أي لم ينقضوا عهدهم ولم يخلوا بالاتفاقية .

(١) انسلخ : مطاوع سلخ ، وهو مأخوذ من سلخ الجلد : إذا أزاله عن لحم الحيوان .

(٢) المرصد : مكان الرصد والرصد : المراقبة وتتبع النظر ، قال الشاعر :

ولقد علمت وما إخالك ناسيا أنّ المنيّة للفتى بالمرصد

وإن يظهروا عليكم : أي يغلبوكـــم.

لا يرقبوا فيكـم : أي لا يراعـوا فيكم ولا يحترمـوا.

إلاًّ ولا ذمــة : أي لا قرابة، ولا عهداً فالإلّ: القرابة والذمة: العهد.

معنى الآيات :

ما زال السياق في إعلان الحرب العامة على المشركين تطهيراً لأرض الجزيرة التي هي دار الإسلام وحوزته من بقايا الشرك والمشركين، فقال تعالى لرسوله والمؤمنين ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم[1]﴾ أي إذا انقضت وخرجت الأشهر الحرم التي أمنتم فيها المشركين الذين لا عهد لهم أولهم عهد ولكن دون أربعة أشهر أو فوقها وبدون حد محدود ﴿فاقتلوا المشركين[2] حيث وجدتموهم﴾ في الحل والحرم سواء ﴿وخذوهم﴾ أسرى ﴿واحصروهم﴾ حتى يستسلموا، ﴿واقعدوا لهم كل مرصد﴾ أي سدوا عليهم الطرق حتى يقدموا أنفسهم مسلمين أومستسلمين وقوله تعالى ﴿فإن تابوا﴾ أي من الشرك وحربكم ﴿وأقاموا الصلاة[3] وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم[4]﴾ إذ أصبحوا مسلمين مثلكم. وقوله ﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي أن الله سيغفر لهم ويرحمهم بعد إسلامهم، لأنه تعالى غفور رحيم، هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٥) أما الآية الثانية (٦) فقد أمر تعالى رسوله أن يجير من طلب جواره من المشركين حتى يسمع كلام الله منه ﷺ ويتفهم دعوة الإسلام ثم هو بالخيار إن شاء أسلم وذلك خير له وإن لم يسلم رده رسول الله[5] ﷺ إلى مكان يأمن فيه من المسلمين أن يقتلوه.

---

(١) ليس المراد بالأشهر الحرم الثلاثة السرد، والواحد الفرد التي هي القعدة والحجة والمحرم ورجب بل المراد منها ما هو مبين في التفسير ومعنى كونها حرما أنه يحرم قتال المشركين فيها والتعرض لهم بالسوء والأذى.

(٢) لفظ المشركين عام في كل مشرك وهو مخصوص بالسنة إذ نهى رسول الله ﷺ عن قتل المرأة والصبي والراهب.

(٣) شاهده حديث الصحاح: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاّ بحقها وحسابهم على الله) وقال أبو بكر: والله لأقاتلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال.

(٤) مالك والشافعي وأحمد على أن تارك الصلاة استحلالا لها أو غير استحلال يؤخر إلى أن يبقى من الوقت الضروري قدر ما يصلي ركعة قبل خروج الوقت ويقتل، وأبو حنيفة والظاهرية يقولون: يسجن ويضرب حتى يصلي ولا يقتل.

(٥) إمام المسلمين هو الذي يتولى أمر التأمين لمن طلب ذلك من المشركين إذ هو نائب عن سائر المسلمين، ويجوز للمسلم ذكرا كان أو انثى أن يؤمن شخصاً ما لما له من حرمة لقول الرسول ﷺ: (المسلمون تتكافؤ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد واحدة على من سواهم). وخالف بعضهم في المرأة فقالوا: لابد من موافقة الإمام لها على تأمينها وخالف أبو حنيفة في العبد.

وهـو معنى قوله تعالى ﴿وإن أحد[1] من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع[2] كلام الله، ثم أبلغه مأمنه، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾ فلذا قبل منهم ما طلبوه من الجوار حتى يسمعوا كلام الله تعالى إذ لو علموا ما رغبوا عن التوحيد إلى الشرك. وقوله تعـالى في الآية الثـالثة (٧) ﴿كيف[3] يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله﴾ هذا الاستفهام للنفي مع التعجب أي ليس لهم عهد أبداً وهم كافرون غادرون، وقوله تعالى ﴿إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين﴾ هؤلاء بعض بني بكر بن كنانة عاهدهم رسول الله ﷺ عام صلح الحديبية وهم عنـد الحرم فهؤلاء لهم عهد وذمة ما استقاموا على عهدهم فلم ينقضوه. فإن استقاموا استقام لهم المسلمون ولم يقتلوهم وفاء بعهدهم وتقوى لله تعالى لأنه تعالى يكره الغدر ويحب المتقين لذلك. وقوله تعالى ﴿كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاّ ولا ذمة﴾ الاستفهام للتعجب أي كيف يكون للمشركين عهد يفون به لكم وهم إن يظهروا عليكم يغلبوكم في معركة، ﴿لا يرقبوا فيكم﴾ أي لا يراعوا الله تعالى ولا القرابة ولا الذمة بل يقتلوكم قتـلاً ذريعاً، وقوله تعالى ﴿يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم﴾ إخبار من الله تعـالى عن أولئـك المشـركين الناكثين للعهد الغادرين بأنهم يحاولون إرضاء المؤمنين بالكذب بأفواههم، وقلوبهم الكافرة تأبى ذلك الذي يقولون بألسنتهم أي فلا تعتقده ولا تقره، ﴿وأكثرهم فاسقون﴾ لا يعرفون الطاعة ولا الالتزام لا بعهد ولا دين، والجملة فيها تهييج للمسلمين على قتال المشركين ومحاصرتهم وأخذهم تطهيراً لأرض الجزيرة منهم قبل وفاة الرسول ﷺ.

هداية الآيـات

من هداية الآيـات:

١ـ وجوب الوفاء بالعهود ما لم ينقضها المعاهدون.

---

(١) أحد، مرفوع بفعل محذوف يفسره ما بعده والتقدير: وإن استجارك أحد من المشركين فأجره.

(٢) الآية دليل على أن ما يسمع من صوت القارىء للقرآن هو كلام الله تعالى فيقول العبد: سمعت كلام الله حقاً وصدقاً.

(٣) ﴿كيف يكون﴾ الخ كيف: للتعجب نحو قولك: كيف يسبقني فلان؟! في الآية إضمار كلمة غدر أي كيف يكون لهم عهد مع إضمارهم الغدر بكم.

٢ـ تقرير مبدأ الحزم في القتال والضرب بشدة.

٣ـ وجوب تطهير الجزيرة من كل شرك وكفر لأنها دار الإسلام.

٤ـ إقام الصلاة شرط في صحة الإيمان فمن تركها فهو كافر غير مؤمن.

٥ـ احترام الجوار، والإقرار به، وتأمين السفراء والممثلين لدولة كافرة.

٦ـ قبول طلب كل من طلب من الكافرين الإذن له بدخول بلاد الإسلام ليتعلم الدين الإسلامي.

٧ـ القرآن كلام الله تعالى حقاً بحروفه ومعانيه لقوله ﴿حتى يسمع كلام الله﴾ الذي يتلوه عليه ﷺ.

٨ـ وجوب مراقبة الله تعالى ومراعاة القرابة واحترام العهود.

ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾

شرح الكلمات :

اشتروا بآيات الله[1] : أي باعوا آيات الله وأخذوا بدلها الكفر.

فصدوا عن سبيله : أي أعرضوا عن سبيل الله التي هي الإسلام كما صدوا غيرهم أيضاً.

---

(١) روي أنهم نقضوا عهدهم من أجل أكلة أطعمهم إيّاها أبو سفيان ومال صرفه لهم ليقفوا معه ضد الرسول ﷺ والمسلمين.

سـاء : أي قبح .

لا يرقبون : أي لا يراعون .

إلاً : الإل : الله ، والقرابة والعهد وكلها صالحة هنا .

فإن تابوا : أي من الشرك والمحاربة .

نكثوا : أي نقضوا وغدروا .

وطعنوا في دينكم[1] : أي انتقدوا الإسلام في عقائده أو عباداته ومعاملاته .

أئمة الكفر : أي رؤساء الكفر المتبعين والمقلدين في الشرك والشر والفساد .

معنى الآيات :

ما زال السياق في الحديث عن المشركين ، وبيان ما يلزم اتخاذه حيالهم فأخبر تعالى عنهم بقوله في الآية (٩) ﴿اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً﴾ أي باعوا الإيمان بالكفر فصدوا أنفسهم كما صدوا غيرهم من أتباعهم عن الإسلام الذي هو منهج حياتهم وطريق سعادتهم وكمالهم . فلذا قال تعالى مُقبحاً سلوكهم ﴿إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ كما أخبر تعالى عنهم بأنهم لا يراعون في أي مؤمن يتمكنون منه الله عز وجل ولا قرابة بينه وبينهم ، ولا معاهدة تربطهم مع قومه ، فقال تعالى ﴿لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون﴾ ووصفه تعالى إياهم بالاعتداء دال على أنهم لا يحترمون عهوداً ولا يتقون الله تعالى فى شيء ،وذلك لظلمة نفوسهم من جراء الكفر والعصيان ، فلذا على المسلمين قتلهم حيث وجدوهم وأخذهم أسرى وحصارهم وسد الطرق عنهم حتى يلقوا السلاح ويسلموا لله ، أو يستسلموا للمؤمنين اللهم إلا أن يتوبوا بالإيمان والدخول في الإسلام كما قال تعالى ﴿فإن تابوا[2] وأقاموا الصلاة وأتوا الزكاة فإخوانكم في الدين﴾ وقوله تعالى

---

(١) الطعن في الدين هو: استنقاصه ، وأصل الطعن: الضرب في الجسم بالرمح لافساده ، واستعمل في الانتقاص للشخص والدين لإفساده . قال رسول الله ﷺ لما طُعن في إمارة أسامة لصغر سنه : (إن تطعنوا في إمارته فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبل ، وأيم الله إن كان لخليقا للإمارة) في الصحيح والطاعنون : المنافقون ، واستدل بهذه الآية على كفر من طعن في الدين ، ووجوب قتله وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد ، وأنّ الذمي إذا طعن في الدين انتقضّ عهده ووجب قتله هذا مذهب الجمهور ، وأبو حنيفة يرى استتابته فإن تاب وإلاّ قُتل .

(٢) من فرّق بين ثلاثة فرّق الله بينه وبين رحمته يوم القيامة . من قال أطيع الله ولا أطيع الرسول فإن الله تعالى قال : ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ ومن قال : أقيم الصلاة ولا أوتي الزكاة والله يقول : ﴿أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ ومن قال : أشكر الله ولا أشكر لوالدي فإن الله قال : ﴿أن اشكر لي ولوالديك﴾ .

﴿ونفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ أي نبين الآيات القرآنية المشتملة على الحجج والبراهين على توحيد الله تعالى وتقرير نبوة رسول الله ﷺ،وعلى الأحكام الشرعية في الحرب والسلم كما في هذا السياق وقوله ﴿لقوم يعلمون﴾ لأن الذين لا يعلمون من أهل الجهالات لا ينتفعون بها لظلمة نفوسهم وفساد عقولهم بضلال الشرك والأهواء وقوله تعالى في الآية الرابعة (١٢) ﴿وإن نكثوا أيمانهم[1] من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم﴾ يريد تعالى أولئك المعاهدين من المشركين إذ هم نكثوا أيمانهم التي أكدوا بها عهودهم فحلوا ما أبرموا ونقضوا ما أحكموا من عهد وميثاق وعابوا الإسلام وطعنوا فيه فهم إذاً أئمة الكفر ورؤساء الكافرين فقاتلوهم بلا هوادة، ولا تراعوا لهم أيماناً حلفوها لكم فإنهم لا أيمان لهم. قاتلوهم رجاء أن ينتهوا من الكفر والخيانة والغدر فيوحدوا ويسلموا ويصبحوا[2] مثلكم أولياء الله لا أعداءه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

١ـ ذم سلوك الكافرين وتصرفاتهم في الحياة وحسبهم أن باعوا الحق بالباطل، واشتروا الضلالة بالهدى.

٢ـ من كان الاعتداء وصفاً له لا يُؤمن على شيء، ولا يوثق فيه في شيء،لفساد ملكته النفسية.

٣ـ أخوة الإسلام تثبت بثلاثة أمور التوحيد وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.[3]

٤ـ الطعن في الدين ردة وكفر موجب للقتل والقتال.

---

(١) النكث: النقض وأصله في كل ما فتل أو أبرم ثم حل، واستعملت في الأيمان والعهود، قال الشاعر:
وإن حلفت لا ينقض النأي عهدها   فليس لمخضوب البنان يمين

(٢) نعم ما مات رسول الله ﷺ حتى لم يبق منهم إلاّ ثلاثة، ولم يبق من المنافقين إلا اربعة: روى البخاري عن زيد بن وهب قال: كنا عند حذيفة فقال: ما بقي من أصحاب هذه الآية يعني: ﴿فقاتلوا أئمة الكفر...﴾ إلا ثلاثة ولا يبقى من المنافقين إلا اربعة فقال أعرابي: إنكم أصحاب محمد تخبرون أخباراً لاندري ما هي؟ تزعمون ألاّ منافق إلاّ اربعة، فما بال هؤلاء الذين يبقرون بيوتنا ويسرقون أعلاقنا ـ نفائس أموالنا ـ قال حذيفة رضي الله عنه: أولائك الفساق، أجل لم يبق منهم إلا أربعة أحدهم شيخ كبير لو شرب الماء البارد لما وجد برده، أي: لذهاب شهوته وفساد معدته.

(٣) قال ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية حرّمت دماء أهل القبلة يعني قوله تعالى ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين﴾.

أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾

شرح الكلمات :

ألا : أداة تحضيض .

نكثوا أيمانهم : نقضوها وحلوها فلم يلتزموا بها .

هموا بإخراج الرسول : من دار الندوة إذ عزموا على واحدة من ثلاث الحبس أو النفي أو القتل .

أول مرة : أي في بدر أو في ماء الهجير[1] حيث أعانت قريش بني بكر على خزاعة .

ويخزهم : أي يذلهم ويهينهم .

ويشف صدور : أي يذهب الغيظ الذي كان بها على المشركين الظالمين .

ان تتركوا : أي بدون امتحان بالتكاليف كالجهاد .

---

(١) حوض من ماء واسع كبير يسقون منه تقاتلت عنده خزاعة حلفاء النبي ﷺ ، وبنو بكر حلفاء قريش وأعانت قريش حلفاءها بني بكر وبذلك نقضت عهدها مع رسول الله ﷺ ، وفي هذا يقول الخزاعي وافد الرسول ﷺ

إن قريشا أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا

هم بيّتونا بالهجير هجّدا وقتلونا ركعاً وسجدا

وليجـــه : أي دخيله وهي الرجل يدخل في القوم وهو ليس منهم ويطلعونه على أسرارهم وبواطن أمورهم.

معنى الآيـات :

ما زال السياق في الحديث عن المشركين وما يلزم إزاءهم من إجراءات فإنه بعد أن أعطاهم المدة المذكورة وأمنهم فيها وهي أربعة أشهر، وقد انسلخت فلم يبق إلا قتالهم وأخذهم وإنهاء عصبة المشركين وآثارها في ديار الله فقال تعالى حاضاً المؤمنين مهيجاً لهم ﴿ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم﴾ وهذه خطيئة كافية في وجوب قتالهم، وثانية هممهم بإخراج الرسول من بين أظهرهم من مكة وثالثة بدؤهم إياكم بالقتال في بدر، إذ عيرهم نجت وأبوا إلا أن يقاتلوكم، إذاً فلم لاتقاتلونهم؟ أتتركون قتالهم خشية منهم وخوفاً إن كان هذا ﴿فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين﴾، لأن ما لدى الله تعالى من العذاب ليس لدى المشركين فالله أحق أن يخشى، هذا ما تضمنته الآية الأولى (١٣) وهي قوله تعـالى ﴿ألا تقـاتلون قومـاً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج[1] الرسول وهم بدؤوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين﴾ وفي الآية الثانية (١٤) يقول تعالى: ﴿قاتلوهم﴾ وهو أمر صريح بالقتال، وبذكر الجزاء المترتب على قتالهم فيقول ﴿يعذّبهم الله بأيدكم ويخـزهم وينصـركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين﴾ وهم خزاعة تشفى صدورهم من الغيظ على بني بكـر الـذين قاتلوهم وأعـانتهم قريش عليهم بعد صلح الحديبية،[2] وقوله تعالى: ﴿ويتوب الله على من يشاء﴾ هذه وإن لم تكن جزاء للأمر بالقتال كالأربعة التي قبلها. ولكن سنة الله تعالى أن الناس إذا رأوا انتصار أعدائهم عليهم في كل معركة يميلون إليهم ويقبلون دينهم وما هم عليه من صفات فقتال المؤمنين للكافرين وانتصـارهم عليهم يتيح الفـرصـة لكثير من الكـافرين فيسلمون وهو معنى قوله تعالى ﴿ويتوب الله على من يشاء﴾ وقوله ﴿والله عليم حكيم﴾ تقرير للأمر بالقتال والنتائج الطيبة المترتبة عليه آخرها أن يتوب الله على من يشاء. وقوله تعالى في الآية (١٦) الأخيرة ﴿أم

---

(١) إذ كانوا السبب في خروجه من مكة مهاجرا كما أخرجوه من المدينة لقتالهم في بدر ولفتح مكة كما همّوا بإخراجه من المدينة هو وأصحابه في أحد والخندق وغير ذلك.

(٢) إذ قريش أعانت بني بكر على خزاعة التي هي حلفاء رسول الله ﷺ وذلك أنّ رجلا من بني بكر أنشد شعراً في هجاء الرسول ﷺ فقال له بعض رجال خزاعة لئن أعدته لأكسرنّ فمك فأعاده فكسر فمه، واندلعت الحرب بينهم فأعانت قريش بني بكر فجاء عمرو بن سالم الخزاعي إلى النبي ﷺ يطلب النصرة فخرج رسول الله ﷺ برجاله وكان فتح مكة.

حسبتم أن تتركوا﴾[1] أي بدون امتحان. وأنتم خليط منكم المؤمن الصادق ومنكم المنافق الكاذب، من جملة ما كان يوحى به المنافقون التثبيط عن القتال بحجة ان مكة فتحت وأن الإسلام عز فما هناك حاجة الى مطاردة فلول المشركين، وهم يعلمون أن تكتلات يقودها الساخطون على الإسلام حتى من رجالات قريش يريدون الانقضاض على المسلمين وإهدار كل نصر تحقق لهم، وهذا المعنى ظاهر من سياق الآية ﴿أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة﴾[2] إذ هناك من اتخذوا من دون الله ورسوله والمؤمنين وليجة يطلعونها على أمور المسلمين، ويسترون عليهم وهي بينهم دخلية، ويقرر هذه الجملة التي ختمت بها الآية وهي قوله تعالى ﴿والله خبير بما تعملون﴾.

هداية الآيـات

من هداية الآيات :

١ـ مشروعية استعمال أسلوب التهييج والإثارة للجهاد.

٢ـ وجوب خشية الله تعالى بطاعته وترك معصيته.

٣ـ لازم الإيمان الشجاعة فمن ضعفت شجاعته ضعف إيمانه.

٤ـ من ثمرات القتال دخول الناس في دين الله تعالى.

٥ـ الجهاد عملية تصفية وتطهير لصفوف المؤمنين وقلوبهم أيـضاً.

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾

---

(١) ﴿أم حسبتم﴾ أم : هي المنقطعة بمعنى بل إضرابا عما سبق من الكلام وانتقالا إلى آخر، والاستفهام للإنكار، والحسبان بمعنى الظن والمعنى كيف تظنون أنكم تتركون بعد فتح مكة دون جهاد لأعداء الله ورسوله، وهم ما زالوا يتآمرون ويتجمعون لقتالكم.

(٢) الوليجة : البطانة من الولوج في الشيء وهو الدخول فيه، والمراد من هذا الرجل يتخذ من أعداء الإسلام صديقاً يدخل عليه ويدخله عليه فيطلعه على أسرار المسلمين للنكاية بهم والتسلط عليهم لإضرارهم وإفسادهم وهلاكهم.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾

شرح الكلمات :

ما كان للمشركين : أي ليس من شأنهم أو مما يتأتى لهم.

حبطت أعمالهم : أي بطلت فلا يثابون عليها ولا ينجحون فيها.

يعمروا مساجد الله : أي بالعبادة فيها، وصيانتها وتطهيرها.

ولم يخش إلا الله : أي لم يخف أحداً غير الله تعالى.

فعسى : عسى من الله تعالى كما هي هنا تفيد التحقيق أي هدايتهم محققة.

المهتدين : أي إلى سبيل النجاة من الخسران والظفر بالجنان.

معنى الآيتين :

لا شك أن هناك من المشركين من ادعى أنه يعمر المسجد الحرام بالسدانة والحجابة والسقاية وسواء كان المدعى هذا العباس يوم بدر أو كان غيره فإن الله تعالى أبطل هذا الادعاء وقال ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله﴾[1] أي لا ينبغي لهم ذلك ولا يصح منهم، وكيف وهم كفار شاهدون[2] على أنفهسم بالكفر، وهل الكافر بالله يعمر بيته وبماذا يعمره؟ وإذا سألت اليهودي ما أنت؟ يقول يهودي، وإذا سألت النصراني، ما أنت؟ يقول نصراني، وإذا سألت الوثني ما أنت؟ يقول مشرك فهذه شهادتهم على أنفسهم[3] بالكفر، وقوله تعالى ﴿أولئك﴾ أي البعداء في الكفر والضلال ﴿حبطت أعمالهم﴾ أي

---

(١) قيل: إنّ العباس لما أسر في بدر عُيِّر بالكفر وقطيعة الرحم قال لمن عيّره، تذكرون مساوئنا ولا تذكرون محاسننا! فقال علي: ألكم محاسن؟ قال: نعم إنا لنعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقي الحاج ونفك العاني فنزلت هذه الآية رداً عليه. فوجب على المسلمين تولي أحكام المساجد.

(٢) قيل الأصل: وهم شاهدون فحذف ﴿وهم﴾ فنصب ﴿شاهدين﴾ على الحال.

(٣) قال ابن عباس: شهادتهم بالكفر هي: سجودهم للأصنام مع إقرارهم بأنها مخلوقة والله خالقها.

بطلت وضاعت لفقدها الإخلاص فيها لله تعالى ﴿وفي النار هم خالدون﴾لا يخرجون منها متى دخولها أبداً، إذ ليس لهم من العمل ما يشفع لهم بالخروج منها. ثم قرر تعالى الحقيقة وهي أن الذين يعمرون[1] مساجد الله حقاً وصدقاً هم المؤمنون الموحدون الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويخشون الله تعالى ولا يخشون سواه هؤلاء هم الجديرون بعمارة المساجد بالصلاة والذكر والتعلم للعلم الشرعي فيها زيادة على بنائها وتطهيرها وصيانتها هؤلاء جديرون بالهداية لكل كمال وخير يشهد لهذا قوله تعالى ﴿فعسى[2] أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾ إلى ما هو الحق والصواب،وإلى سبيل النجاة من النار والفوز بالجنة.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين :

١- حرمة دخول الكافر المساجد إلا لحاجة وبإذن من المسلمين.

٢- فضيلة عمارة المساجد بالعبادة فيها وتطهيرها وصيانتها.

٣- فضيلة المسلم وشرفه، إذ كل من يسأل عن دينه يجيب بجواب هو الكفر إلا المسلم فإنه يقول: مسلم أي لله تعالى فهو إذاً المؤمن وغيره الكافر.

٤- وجوب الإيمان بالله واليوم الآخر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والخشية[3] من الله تعالى.

٥- أهل الأمن والنجاة من النار هم أصحاب الصفات الأربع المذكورة في الآية.

۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ
ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ

---

(١) وردت أحاديث في فضل عمارة المساجد منها القوي ومنها الضعيف مجموعها يدل على المراد منها وهو حسن الظن بمن يعمر مساجد الله وأظهر حديث إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان.

(٢) قالت العلماء: «عسى من الله واجبة أي: ما يرجى بها واجب الوقوع، وقيل: هي هنا بمعنى: خليق أي: فخليق أن يكونوا من المهتدين.

(٣) تساءل البعض وقالوا: قوله تعالى: ﴿ولم يخش إلاّ الله﴾ دال على أن المؤمن الكامل الإيمان لا يخشى إلا الله وإذا بالواقع أن الأنبياء يخشون الأعداء فضلا عن غيرهم فقال بعضهم معناه: أنهم لا يخشون إلا الله مما يُعبد، وقال بعضهم: أي لم يخف إلا الله في باب الدين. والجواب الصحيح أنّ الإنسان نبيا كان أو غيره من المؤمنين العاملين لا يخشون إلا الله تعالى فإذا خافوا عدوا، ليس معناه أنهم خافوه لذاته وإنما خافوا من الله أن يكون سلطة عليهم فخوفهم عائد في الحقيقة إلى الله تعالى فهو الذي بيده الأمر، والخوف منه لا من غيره.

وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٢﴾

شرح الكلمات :

سقاية الحاج : مكان يوضع فيه الماء في المسجد الحرام ويسقى منه الحجاج مجاناً.

وعمارة المسجد الحرام : هنا عبارة عن بنائه وصيانته وسدانة البيت فيه.

لا يستوون عند الله : إذ عمارة المسجد الحرام مع الشرك والكفر لا تساوى شيئاً.

والله لا يهدي القوم الظالمين : أي المشركين لا يهديهم لما فيه كمالهم وسعادتهم.

ورضــوان : أي رضا الله عز وجل عنهم.

نعيـم مقيـم : أي دائم لا يزول ولا ينقطع.

معنى الآيـات :

ما زال السياق في الرد على من رأى تفضيل عمارة المسجد الحرام[1] بالسقاية والحجابة

(١) روي عن السدي أنه قال: افتخر العباس بالسقاية وشيبة بالعمارة وعلي بالإسلام والجهاد فصدق الله علياً وكذبهما أي بهذه الآية: ﴿أجعلتم سقاية الحاج...﴾ الخ فأخبر أن العمارة لا تكون بالكفر وإنما تكون بالإيمان والعبادة وأداء الطاعة.

وقيل أيضاً: إن المشركين سألوا اليهود وقالوا: نحن سقاة الحاج وعمار المسجد الحرام أفنحن أفضل أم محمد وأصحابه؟ فقالت لهم اليهود مكراً وعناداً: انتم أفضل وروى مسلم عن النعمان بن بشير قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ فقال رجل: ما أبالي ألا أعمل بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر ما أبالي ألا أعمل بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم فزجرهم عمر وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ ولكن إذا صليت الجمعة دخلت واستفتيته عما اختلفتم فيه. فأنزل الله عز وجل: ﴿أجعلتم..﴾ الآية. وحل الإشكال في هذه الأخبار: أن الآية تذكر دليلا لا أنها نزلت في ذلك الوقت.

والسدانة على الإيمان والهجرة والجهاد فقال تعالى موبخالهم ﴿أجعلتم[1] سقاية الحاج[2] وعمارة[3] المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون﴾ في حكم الله وقضائه بحال من الأحوال، والمشركون ظالمون كيف يكون لعمارتهم للمسجد الحرام وزن أو قيمة تذكر ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ بعد هذا التوبيخ والبيان للحال أخبر تعالى أن ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم﴾ هم ﴿أعظم درجة﴾ ممن آمنوا ولم يستكملوا هذه الصفات الأربع، وأخبر تعالى أنهم هم الفائزون بالنجاة من النار ودخول الجنة، وأعظم من هذا ما جاء في قوله ﴿يبشرهم ربهم برحمة منه﴾ وهي الجنة ﴿ورضوان﴾ منه تعالى وهو أكبر نعيم ﴿وجنات﴾ أي بساتين في الملكوت الأعلى ﴿لهم فيها نعيم مقيم﴾ لا يحول ولا يزول وأنهم خالدون فيها لا يخرجون منها أبداً، ﴿وإن الله عنده أجر عظيم﴾ لا يقادر قدره جعلنا الله تعالى منهم وحشرنا في زمرتهم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

١ـ أكمل المؤمنين وأعلاهم درجة، وأقربهم من الله منزلة من جمع الصفات الثلاث المذكورة في الآية (٢٠) وهي الإيمان والهجرة والجهاد في سبيل الله بالمال والنفس.

٢ـ فضل الهجرة والجهاد.

٣ـ تفاوت أهل الجنة في علو درجاتهم.

٤ـ حرمان الظالمين المتوغّلين في الظلم من هداية الله تعالى.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ
وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ

---

(١) أي: أجعلتم أهل سقاية الحاج، أو أصحاب سقاية الحاج، إذ حذف المضاف وهو: أهل أو أصحاب وبقي المضاف إليه وهو: سقاية فنصب انتصابه.

(٢) الحاج: اسم جنس ناب مناب الحجاج جمع حاج.

(٣) وقرىء: سُقاة بضم السين جمع ساقٍ وعمرة: جمع عامر ككتبة جمع كاتب.

وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾

شرح الكلمات :

أولياء : جمع وليّ وهو من تتولاه بالمحبة والنصرة ويتولاك بمثل ذلك.

استحبوا : أي أحبوا الكفر على الإيمان.

الظالمون : الظلم وضع الشيء في غير موضعه، ومن أحب من لا تجوز محبته فقد وضع شيئاً في غير موضعه فهو ظالم.

وعشيرتكم : أي قرابتكم من النسب كالأعمام الأباعد وأبنائهم.

اقترفتموها : أي اكتسبتموها.

كسادها : بوارها وعدم رواجها.

فتربصوا : أي انتظروا.

حتى يأتي الله بأمره : أي بعقوبة هذه المعصية يوم فتح مكة.

معنى الآيتين :

هذا إنذار الله تعالى للمؤمنين ينهاهم فيه عن اتخاذ من كفر من آبائهم وإخوانهم أولياء لهم يوادونهم ويناصرونهم ويطلعونهم على أسرار المسلمين وبواطن أمورهم. فيقول تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ أي بالله ورسوله ولقاء الله ووعده ووعيده ﴿لا تتخذوا آباءكم[1]

---

(١) هذه الآية ما تضمنته من حكم حرمة موالاة الكافرين ولو كانوا من أقرب الأقرباء وهو عام في الأمة إلى يوم القيامة، وإن فهم منها بعضهم أنها للمؤمنين الذين كانوا بمكة وغيرها يدعوهم إلى الهجرة والتخلي عن بلاد الكفر.

وإخوانكم أولياء[1] إن استحبوا[2] الكفر على الإيمان﴾ أي اثروا الكفر والإصرار عليه على الإيمان بالله ورسوله ثم يهددهم إن لم يمتثلوا أمره ويفاصلوا آباءهم وإخوانهم المستحبين للكفر على الإيمان فيقول ﴿ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون﴾[3] ووجه الظلم ظاهر وهو أنهم وضعوا المحبة موضع البغضاء، والنصرة موضع الخذلان. والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه. ثم أمر تعالى رسوله أن يقول لهم، وفي هذا العدول عن خطابهم مباشرة إلى الواسطة ما يشعر بالغضب وعدم الرضى، والتهديد والوعيد ﴿قل إن كان[4] آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله﴾ فتركتم الهجرة والجهاد لذلك ﴿فتربصوا حتى يأتي الله بأمره﴾ أي انتظروا أمر الله وهو فتح مكة عليكم وإنزال العقوبة بكم، ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي لا يوفقهم لسبل نجاتهم وسعادتهم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

١- حرمة اتخاذ الكافرين أولياء يُوادون ولو كانوا من أقرب الأقرباء كالأب والابن والأخ.

٢- من الظلم الفظيع موالاة من عادى الله ورسوله والمؤمنين.

٣- فرضية محبة الله ورسوله والجهاد في سبيله، ومحبة سائر محاب الله تعالى وكره سائر مكاره الله تعالى من العقائد والأحوال والأعمال والذوات والصفات.

٤- حرمان أهل الفسق المتوغلين فيه من هداية الله تعالى إلى ما يكملهم ويسعدهم.

لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ

---

(١) لم يذكر الأبناء لأنّ العادة أنّ الأبناء تبع لآبائهم وذكر الآباء والإخوان ذكر لأقوى القرابة.

(٢) استحبوا: بمعنى أحبوا نحو: استجاب بمعنى: أجاب.

(٣) قال ابن عباس: من تولاهم هو مشرك مثلهم لأنّ الرضا بالشرك شرك ويستثنى من هذه المقاطعة الإحسان والهبة للأقارب الكفرة لحديث أسماء إذ قالت: يا رسول الله إنّ أمي قدمت عليّ راغبة وهي مشركة أفأصلها؟ قال: صلي أمك. رواه البخاري.

(٤) هذه الآية نزلت في الذين تخلفوا عن الهجرة إلى المدينة إيثاراً لما ذكر تعالى على حب الله ورسوله والجهاد في سبيل الله تعالى إذ توعدهم تعالى بقوله: ﴿فتربصوا﴾ أي انتظروا ما سيحل بكم إن لم تتوبوا فتهاجروا وتجاهدوا.

تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

شرح الكلمات :

في مواطن : المواطن جمع موطن بمعنى الوطن وهو محل إقامة الإنسان.

حنين : وادٍ على بعد أميال يسيرة من الطائف.

إذ أعجبتكم كثرتكم : أي كثرة عددكم حتى قال من قال: لن نغلب اليوم من قلة.

فلم تغن عنكم شيئاً : أي لم تجز عنكم شيئاً من الإجزاء إذ انهزمتم في أول اللقاء.

وضاقت عليكم الأرض : أي لم تعرفوا أين تذهبون، وكيف تتصرفون كأنكم محصورون في مكان ضيق. ،

بما رحبت : أي على رحابتها وسعتها.

أنزل الله سكينته : أي الطمأنينة في نفوسهم، فذهب القلق والاضطراب.

وأنزل جنودا : أي من الملائكة.

نجس : أي ذوو نجس وذلك لخبث أرواحهم بالشرك.

بعد عامهم هذا : عام تسعة من الهجرة.

عيـــلة : أي فقراً وفاقة وحاجة .

معنى الآيـات :

لما حرم الله على المؤمنين موالاة الكافرين ولو كانوا اقرباءهم وحذرهم من القعود عن الهجرة والجهاد، وكان الغالب فيمن يقعد عن ذلك إنما كان لجبنه وخوفه أخبرهم تعالى في هذه الآيات الثلاث أنه ناصرهم ومؤيدهم فلا يقعد بهم الجبن والخوف عن أداء الواجب من الهجرة والجهاد فقال تعالى ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة﴾[1] كبَدْر والنضير وقريظة والفتح وغيرها ﴿ويوم حنين﴾[2] حين قاتلوا قبيلة هوازن مذكراً إياهم بهزيمة أصابت المؤمنين نتيجة خطأ من بعضهم وهو الاغترار بكثرة العدد إذ قال من قال منهم: لن نغلب اليوم من قلة إذ كانوا اثني عشر[3] ألفاً وكان عدوهم أربعة آلاف فقط، إنهم ما إن توغلوا بين جنبتي الوادي حتى رماهم العدو بوابل من النبل والسهام فلم يعرفوا كيف يتصرفون حتى ضاقت عليهم الأرض على سعتها وولوا مدبرين هاربين ولم يثبت إلا رسول الله ﷺ وكان على بغلته البيضاء المسماة (بالدُلْدُل) والعباس إلى جنبه وأبوسفيان بن الحارث بن عبدالمطلب ابن عمه، ثم نادى منادي رسول الله: أن يا أصحاب سورة البقرة هلموا أصحاب السمرة (شجرة بيعة الرضوان) هلموا. فتراجعوا إلى المعركة ودارت رحاها و﴿أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً﴾ تلامس القلوب وتنفخ فيها روح الشجاعة والصبر والثبات، فصبروا وقاتلوا وما هى إلا ساعة وإذا بالعدو سبي بين أيديهم ولم يحصل لهم أن غنموا يوما مثل ما غنموا هذا اليوم إذ بلغ عدد الإبل اثني عشر ألف بعير، ومن الغنم مالا يحصى ولا يعد. بهذا جاء قوله تعالى: ﴿ويوم حنين إذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين﴾[4] أي هاربين من العدو ﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً﴾ أي من الملائكة ﴿لم تروها﴾ ﴿وعذب الذين كفروا﴾ أي هوازن ﴿وذلك﴾ أي القتل والسبي ﴿جزاء الكافرين﴾ بالله ورسوله.

---

(١) المواطن: جمع موطن وهو مكان التوطّن أي: الإقامة ويطلق على موضع الحرب وموقعها.

(٢) خص يوم حنين بالذكر لما وقع فيه من الهزيمة في أوّل المعركة.

(٣) عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وألفان من مسلمة الفتح وهم الطلقاء وهزموا من أجل قول بعضهم: لن نغلب اليوم عن قلة وهو ما يسمى بالعجب وهو محبط للعمل.

(٤) روى مسلم عن ابن اسحق قال: جاء رجل إلى البراء فقال: أكنتم وليتم يوم حنين يا أبا عمارة؟ فقال: أشهد على نبي الله ﷺ ما ولى ولكنه انطلق أخفّاء من الناس وحسّر إلى هذا الحي من هوازن وهم قوم رماة فرموهم برشق من نبل كأنها رجل من جراد فانكشفوا فأقبل القوم إلى رسول الله ﷺ وأبو سفيان يقود به بغلته فنزل ودعا واستنصر وهو يقول: (أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب اللهم نزل نصرك) قال البراء: كنا والله إذا احمّر البأس نتقي به.

وقوله تعالى ﴿ثم يتوب الله على من يشاء﴾[1] أي بعد قتالكم للكافرين وقتلكم من تقتلون يتوب الله على من يشاء ممن بقوا أحياء بعد الحرب ﴿والله غفور رحيم﴾ فيغفر لمن يتوب عليه من المشركين ماضي ذنوبه من الشرك وسائر الذنوب ويرحمه بأن يدخله الجنة مع من يشاء من المؤمنين الصادقين في إيمانهم هذا ما دلت عليه الآيات الثلاث. أما الآية الرابعة ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس[2] فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾[3] فإنه تعالى أمر المؤمنين بأن يمنعوا من دخول المسجد الحرم كل مشرك ومشركة لأن المشرك نجس الظاهر والباطن فلا يحل دخولهم إلى المسجد الحرام وهو مكة والحرم حو لها، ومن يومئذ لم يدخل مكة مشرك، وقوله تعالى ﴿وإن خفتم عيلة﴾[4] أي فقراً لأجل انقطاع[5] المشركين عن الموسم حيث كانوا يجلبون التجارة يبيعون ويشترون فيحصل نفع للمسلمين ﴿ فسوف يغنيكم الله من فضله﴾ فامنعوا المشركين ولا تخافوا الفقر وقوله تعالى ﴿إن شاء إن الله عليم حكيم﴾ استثناء منه تعالى حتى تبقى قلوب المؤمنين متعلقة به سبحانه وتعالى راجية خائفة غير مطمئنة غافلة، وكونه تعالى عليماً حكيماً يرشح المعنى المذكور فإن ذا العلم والحكمة لا يضع شيئاً إلا في موضعه فلا بد لمن أراد رحمة الله أو فضل الله أن يجتهد أن يكون أهلاً لذلك، بالإيمان والطاعة العامة والخاصة.

هداية الآيـات

من هداية الآيـات :

١ـ حرمة العجب بالنفس والعمل إذ هو أي العجب من العوائق الكبيرة عن النجاح.

٢ـ بيان إفضال الله تعالى وإكرامه لعباده المؤمنين.

٣ـ بيان الحكمة من القتال في سبيل الله تعالى.

٤ـ تقرير نجاسة الكافر المعنوية.

---

(١) كمالك بن عوف النصري رئيس حنين ومن أسلم معه من قومه.

(٢) قيل: وصف المشرك بالنجس: لأنه جنب لا يغتسل من جنابة غسلا شرعياً فهو لذلك نجس، وقيل: الشرك هو الذي جعله نجساً إذ لو أسلم زال عنه الوصف.

(٣) هو عام حجة الوداع وليس عام تسعة كما قال بعضهم.

(٤) قال الشاعر:

وما يدري الفقير متى غناه   وما يدري الغني متى يعيل

يقال: عال يعيل عيلة: إذا افتقر.

(٥) في الآية دليل على مشروعية الأخذ بالأسباب إذ قال ﷺ: (اعقلها وتوكل) قال بعضهم: الأسباب التي يطلب بها الرزق هي الجهاد وأكل الرجل من عمل يده التجارة، الحرث، والغرس، التعليم للعلوم بالأجرة، الاستدانة بنيّة رد الدين.

٥ـ منع دخول المشرك الحرم المكي كائناً من كان بخلاف باقي المساجد فقد يؤذن للكافر لمصلحة أن يدخل بإذن المسلمين.

٦ـ لا يمنع المؤمن من امتثال أمر ربّه الخوف من الفاقة والفقر فإن الله تعالى تعهد بالإغناء إن شاء.

قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾

شرح الكلمات:

لا يؤمنون بالله

ولا باليوم الآخر : أي إيماناً صحيحاً يرضاه الله تعالى لموافقة الحق والواقع.

ولا يحرمون ما حرم

الله ورسوله : أي كالخمر والربا وسائر المحرمات.

ولا يدينون دين الحق : أي الإسلام إذ هو الدين الذي لا يقبل ديناً سواه.

من الذين أوتوا الكتاب : أي اليهود والنصارى.

الجزية : أي الخراج المعلوم الذي يدفعه الذمي كل سنة.

عن يد وهم صاغرون[1] : أي يقدمونه بأيديهم لا ينيبون فيه غيرهم، وهم صاغرون: أي أذلاء منقادون لحكم الإسلام هذا.

معنى الآية الكريمة:

لما أمر الله تعالى رسوله والمؤمنين بقتال المشركين حتى يتوبوا من الشرك ويوحدوا ويعبدوا الله تعالى بما شرع أمر رسوله في هذه الآية والمؤمنين بقتال أهل الكتاب وهم

---

(١) وفسّر قوله: ﴿عن يد﴾ بالقوة على دفع الجزية بأن يكون المطالب بها قادرا على أدائها لغناه وعدم فقره. وهو تفسير حق لأنّ الفقير منهم لا يطالب بالجزية في حال فقره، وما في التفسير أصحّ.

اليهود والنصارى إلى أن يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون،وجعل إعطاء الجزية غايةً لنهاية القتال، لا الإسلام، لأن الإسلام يعرض أولاً على أهل الكتاب فإن قبلوه فذاك وإن رفضوه يطلب منهم الدخول في ذمة المسلمين وحمايتهم تحت شعار الجزية وهي رمز دال على قبولهم حماية المسلمين وحكمهم بشرع الله تعالى فإذا أعطوها حقنوا دماءهم وحفظوا أموالهم، وأمنوا في حياتهم المادية والروحية، هذا ما تضمنته الآية الكريمة :﴿قاتلوا الذين لايؤمنون[1] بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب[2] حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ وإن قيل اليهود والنصارى يؤمنون بالله وباليوم الآخر فكيف نفت الآية عنهم ذلك؟ والجواب أن اليهود في إيمانهم بالله مشبهة مجسمة يصفون الله تعالى بصفات تعالى الله عنها علواً كبيراً، والنصارى يعتقدون أن الله حلّ في المسيح، وإن الله ثالث ثلاثة والله ليس كذلك فهم إذاً لا يؤمنون بالله تعالى كما هو الله الإله الحق، فلذا إيمانهم باطل وليس بإيمان يضاف إلى ذلك أنهم لو آمنوا بالله لآمنوا برسوله محمد ﷺ ولو آمنوا باليوم الآخر لأطاعوا الله ورسوله لينجوا من عذاب اليوم الآخر وليسعدوا فيه بدخول الجنة فلما لم يؤمنوا ولم يعملوا كانوا حقاً كافرين غير مؤمنين، وصدق الله العظيم حيث نفى عنهم الإيمان به وباليوم الآخر، والله أعلم بخلقه من أنفسهم.

هداية الآية الكريمة

من هداية الآية الكريمة :

١ـ وجوب قتال أهل الكتاب حتى يسلموا أو يدخلوا في حكم الإسلام وذلك من أجل إعدادهم للإسلام ليكملوا عليه ويسعدوا به.

٢ـ الإيمان غير الصحيح لا يعتبر إيماناً منجياً ولا مسعداً.

٣ـ استباحة ما حرم الله من المطاعم والمشارب والمناكح كفر صريح.

(١) الآية صريحة في عدم اعتبار إيمان اليهود والنصارى بالله واليوم الآخر إيمانا صحيحا يزكى النفس ويؤهل لدخول الجنة، وهذا لأمرين: الأول: لما داخل إيمانهم من التحريف والتغيير فلم يكن إيمانهم بركني الإيمان العظيمين الإيمان بالله واليوم الآخر إيمانا صحيحاً مقبولا شرعاً فلذا عُد كلا إيمان. والثاني: لأنهم لو آمنوا بالله ولقائه حق الإيمان لآمنوا برسوله محمد ﷺ وبما جاء به من الهدى، ولاستقاموا على شرع الله فأحلوا ما أحل وحرموا ما حرم.

(٢) المجوس والصابئة لم يذكرا في الآية، والذي به العمل عند عامة الفقهاء أنهم يسنّ بهم سنة أهل الكتاب في قبول الجزية منهم وإدخالهم في ذمة المسلمين.

٤ـ مشروعية أخذ الجزية من أهل الكتاب وهي مقدّرة[1] في كتب الفقه مبينة وهي بحسب غنى المرء وفقره وسعته وضيقه.

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

شرح الكلمات:

عُزير	: هو الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه، واليهود يسمونه: عِزْرا.
المسيح	: هو عيسى بن مريم عليهما السلام.
يضاهئون	: أي يشابهون.
قول الذين كفروا	: أي من آبائهم وأجدادهم الماضين.
قاتلهم الله	: أي لعنهم الله لأجل كفرهم.
أنى يؤفكون	: أي كيف يصرفون عن الحق.

(١) تقدّر بدينار من الذهب، وإن صالحهم الإمام عن أكثر فهم على ما صالحهم عليه.

أحبارهم ورهبانهم : الأحبار جمع حبر: علماء اليهود، والرهبان جمع راهب عابد النصارى.

أرباباً من دون الله : أي آلهة يشرعون لهم فيعملون بشرائعهم من حلال وحرام.

نـور الله : أي الإسلام لأنه هاد إلى الإسعاد والكمال في الدارين.

بأفواهـــهم : أي بالكذب عليه والطعن فيه وصرف الناس عنه.

رســولـــه : محمداً صلى الله عليه وسلم.

معنى الآيـات :

لما أمر تعالى بقتال أهل الكتاب لكفرهم وعدم إيمانهم الإيمان الحق المنجي من النار ذكر في هذه الآيات الثلاث ما هو مقرر لكفرهم ومؤكد له فقال ﴿وقالت اليهود عزير[1] ابن الله﴾ ونسبة الولد إلى الله تعالى كفر بجلاله وكماله ﴿وقالت النصارى المسيح ابن[2] الله﴾ ونسبه الولد إليه تعالى كفر به عز وجل وبماله من جلال وكمال وقوله تعالى: ﴿ذلك قولهم بأفـواههم﴾ أي ليس له من الواقع شيء إذ ليس لله تعالى ولد، وكيف يكون له ولد ولم تكن له زوجة، وإنما ذلك قولهم بأفواههم فقط ﴿يضاهئون[3] به﴾ أي يشابهون به ﴿قول الذين كفروا من قبل﴾[4] وهم اليهود الأولون وغيرهم وقوله تعالى ﴿قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾ دعاء عليهم باللعن والطرد من رحمة الله تعالى وقوله ﴿أنى يؤفكون﴾ أي كيف يصرفون عن الحق ويبعدون عنه بهذه الصورة العجيبة وقوله ﴿اتخذوا أحبارهم[5] ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾[6] هذا دليل آخر على كفرهم وشركهم إذ قبولهم قول علمائهم وعبادهم والإذعان

---

(١) قرأ عاصم (عزيرٌ) بالتنوين، وقرأ نافع بغير تنوين، وقوله تعالى ﴿وقالت اليهود﴾ هو كقوله تعالى: ﴿الذين قال لهم الناس. .﴾ فهو لفظ عام، والمراد به الخصوص إذ ما كلّ اليهود قالوا بهذه القولة ولا كل الناس وإنما بعضهم.

(٢) في الآية دليل على أن حاكي الكفر، وهو منكر له بقلبه ولسانه لا يكفر.

(٣) يقال: امرأة ضهياً: للتي لا تحيض ولا ثدي لها كأنها أشبهت الرجل.

(٤) أي: شابه قولهم قول الكافرين من قبلهم وهم أسلافهم الذين قلدوهم أو قول العرب الذين قالوا: الملائكة بنات الله. تعالى الله عن البنت والولد علواً كبيرا.

(٥) الحِبر بكسر الحاء: المداد، وبفتحها العالم، والرهبان: جمع راهب مأخوذ من الرهبة، والراهب الحق. هو من حمله خوف الله على أن يخلص له النية في القول والعمل ويجعل زمانه له وعمله له وأنسه به.

(٦) روى الترمذي عن عدي بن حاتم قال: أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: (ماهذا يا عديّ اطرح عنك هذا الوثن وسمعته يقرأ ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم﴾ وسئل حذيفة رضي الله عنه عن قول الله تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهباناهم أرباباً من دون الله﴾ هل عبدوهم؟ قال: لا ولكن أحلّوا لهم الحرام فاستحلوه وحرموا عليهم الحلال فحرموه.

له والتسليم به حتى أنهم ليحلون لهم الحرام فيحلونه ويحرمون عليهم الحلال فيحرمونه، شرك وكفر والعياذ بالله. وقوله ﴿والمسيح[1] ابن مريم﴾ أي اتخذه النصارى رباً وإلهاً، وقوله تعالى ﴿وما أمروا إلا ليبعدوا إلهاً واحداً﴾ أي لم يأمرهم أنبياؤهم كموسى وعيسى وغيرهما إلا بعبادة الله تعالى وحده لا إله إلا هو ولا رب سواه وقوله ﴿سبحانه عما يشركون﴾ نزه تعالى نفسه عن شركهم. وقوله تعالى ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم﴾ أي يريد اليهود والنصارى أن يطفئوا نور الله الذي هو الإسلام بأفواههم بالكذب والافتراء، والعيب والانتقاص، ﴿ ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾[2]، وقد فعل فله الحمد وله المنة، وأصبح الإسلام الظاهر على الأديان كلها، هذا ما دلت عليه الآيات الثلاث أما الآية الرابعة (٣٣) فقد أخبر تعالى أنه ﴿هو الذي أرسل رسوله﴾ أي محمداً ﴿بالهدى﴾ وهو القرآن ﴿ودين الحق﴾ الذي هو الإسلام. وقوله ﴿ليظهره﴾ أي الدين الحق الذي هو الإسلام ﴿على الدين كله ولو كره المشركون﴾[3]. وقد فعل فالإسلام ظاهر في الأرض كلها سمع به أهل الشرق والغرب ودان به أهل الشرق والغرب وسيأتي يوم يسود فيه المسلمون أهل الدنيا قاطبة بإذن الله تعالى.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

١ـ تقرير كفر اليهود والنصارى بذكر عقائدهم الكفرية.

٢ـ طاعة العلماء ورجال الدين طاعة عمياء حتى يحلوا ويحرموا فيتبعوا شرك.

٣ـ بيان عداء اليهود والنصارى للإسلام وتعاونهم على إفساده وإفساد أهله.

٤ـ بشرى المسلمين بأنهم سيسودون العالم في يوم من الأيام ويصبح الإسلام هو الدين الذي يعبد الله به في الأرض لا غيره، ويشهد لهذا آية ﴿ويكون الدين كله لله﴾ فلو لم يعلم الله أن ذلك كائن لم يجعله غاية وطالب بالوصول اليها.

---

(١) يطلق لفظ المسيح على العرق لأنه إذا سال يُمسح من الجبين قال أحدهم شعراً:

افرح فسوف تألف الأحزانا   إذا شهدت الحشر والميزانا
وسال من جبينك المسيح   كأنّه جداول تسيح

(٢) صحّ دخول «إلاّ» على الإثبات هنا لأنّ أبى يحذف معها الكلام فيقال: يأبي فلان كل شيء إلا أن يطاع مثلا. فمعنى الآية: يأبى الله كل شيء إلا أن يتم نوره.

(٣) شاهده: رواية أحمد: عن المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لايبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلا دخلته كلمة الإسلام بعزّ عزيز أو بذل ذليل إمّا يعزّهم الله فيجعلهم من أهلها وإمّا يذلهم فيدينون لها).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ (٣٤) يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ (٣٥) ﴾

شرح الكلمات :

بالباطل : أي بدون حق أباح لهم أكلها .

ويصدون عن سبيل الله : أي يصرفون أنفسهم وغيرهم عن الإسلام الذي هو السبيل المفضي بالعبد إلى رضوان الله تعالى .

يكنزون : يجمعون المال ويدفنونه حفاظاً عليه ولا يؤدون حقه .

الذهب والفضة : هما النقدان المعروفان .

في سبيل الله : أي حيث رضا الله كالجهاد وإطعام الفقراء والمساكين .

فبشرهم : أي أخبرهم بعذاب أليم : أي موجع .

يحمى عليها : لأنها تحول إلى صفائح ويحمى عليها ثم تكوى بها جباههم .

هذا ما كنزتم : أي يقال لهم عند كيهم بها : هذا ما كنزتم لأنفسكم توبيخاً لهم وتقريعاً .

معنى الآيتين :

بمناسبة ذكر عداء اليهود والنصارى للإسلام والمسلمين ، وأنهم يريدون دوماً وأبداً

إطفاء نور الله بأفواههم، ذكر تعالى ما هو إشارة واضحة إلى أنهم ماديون لا همّ لهم إلا المال والرئاسة فأخبر المسلمين فقال ﴿يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار﴾[1] وهم علماء اليهود ﴿والرهبان﴾ وهم رجال الكنائس من النصارى ﴿ليأكلون أموال الناس بالباطل﴾ كالرشوة، وكتابة صكوك الغفران يبيعونها للسفلة منهم، إلى غير ذلك من الحيل باسم[2] الـدين،وقوله تعالى عنهم ﴿ويصدون عن[3] سبيل الله﴾ دليل واضح على أنهم يحاربون الإسلام باستمرار للإبقاء على مناصبهم الدينية يعيشون عليها يترأسون بها على السفلة والعوام من اليهود والنصارى، وقوله تعالى ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾[4][5] لفظ عام يشمل الأحبار والرهبان وغيرهم من سائر الناس من المسلمين ومن أهل الكتاب إلا أن الرهبان والأحبار يتناولهم اللفظ أولاً، لأن من يأكل أموال الناس بالباطل ويصد عن سبيل الله أقـرب إلى أن يكنـز الذهب والفضة ولا ينفقها في سبيل الله، وقوله تعالى لرسوله ﴿فبشـرهم بعـذاب أليم﴾ أي أخبرهم معجلاً لهم الخبر في صورة بشارة، وبين نوع العذاب الأليم بقوله ﴿يوم يحمى عليها﴾ أي صفائح الذهب والفضة بعد تحويلها إلى صفائح ﴿في نار جهنم ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم﴾ أي من كل الجهات الأربع من أمام ومن خلف وعن يمين وعن شمال ويقال لهم تهكماً بهم وازدراء لهم وهو نوع عذاب أشد على النفس من عذاب الجسم ﴿هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ .

---

(١) الآية نزلت في أهل الكتاب كشفاً عن عوراتهم المادية، وأما قوله تعالى ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة . .﴾ الخ فهو حكم عام يشمل المسلمين وأهل الكتاب.

(٢) قيل كانوا يأخذون من غلات أتباعهم ومن أموالهم ضرائب باسم حماية الدين والقيام بالشرع، وقلدهم الروافض، فإن أئمتهم يأخذون منهم ضرائب هي خمس دخل كل فرد من أي جهة كان هذا الدخل أخبرني بهذا أحد رجالهم في الكويت.

(٣) من صدّهم عن سبيل الله انهم كانوا يمنعون أتباعهم من الدخول في الإسلام ومن اتباع محمد ﷺ.

(٤) دلت الآية على زكاة العين: الذهب والفضة وهي تجب بأربعة شروط الحرية، والإسلام، والحول، والنصاب السليم من الدين، والنصاب مائتا درهم فضة أو عشرون ديناراً من الذهب، ويكمل أحدهما من الآخر، ومن السنة قوله ﷺ (ليس في مال زكاة حتى يحول عليه الحول) رواه أبو داود. وقوله ﷺ: (ليس في أقل من مائتي درهم زكاة، وليس في أقل من عشرين ديناراً زكاة) في الصحيح.

(٥) روى أبو داود عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾ قال كبر ذلك على المسلمين فقال عمر: أنا أفرج عنكم فانطلق قال: يا نبي الله إنّه كبُر على أصحابك هذه الآية، فقال: (إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيّب ما بقى من أموالكم وإنما فرض المواريث في أموالكم لتكون لمن بعدكم فكبّر عمر فقال له رسول الله ﷺ: (ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء: المرأة الصالحة: إذا نظر إليها سرته وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته).

هداية الآيـتين

من هداية الآيـتين :

١ـ بيان حقيقة علماء اليهود والنصارى، وهي أنهم ماديون باعوا آخرتهم بدنياهم يحاربون الإسلام ويصدون عنه للمحافظة على الرئاسة وللأكل على حساب الإسلام.

٢ـ حرمة أكل أموال الناس بالباطل.

٣ـ حرمة جمع المال وكنزه وعدم الإنفاق منه.

٤ـ المال الذي تؤدى زكاته كل حول لا يقال له كنز ولو دفن تحت الأرض.

٥ـ بيان عقوبة من يكنز المال ولا ينفق منه في سبيل الله وهي عقوبة شديدة.

إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

شـرح الكلـمات :

عـدة : أي عدد.

الشهور[1] : جمع شهر والشهر تسعة وعشرون يوماً، أو ثلاثون يوماً.

في كتاب الله : أي كتاب المقادير: اللوح المحفوظ.

أربعة حرم : هي رجب، والقعدة، والحجة، ومحرم، الواحد منها حرام والجمع حرم.

الدين القيم[2] : أي الشرع المستقيم الذي لا اعوجاج فيه.

فلا تظلموا فيهن أنفسكم : أي لا ترتكبوا في الأشهر الحرم المعاصي فإنها أشد حرمة.

كافة : أي جميعاً وفي كل الشهور حلالها وحرامها.

مع المتقين : أي بالتأييد والنّصر، والمتقون هم الذين لا يعصون الله تعالى.

إنما النسيء : أي تأخير حرمة شهر المحرم إلى صفر.

يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً : أي النسيء عاماً يحلونه وعاماً يحرمونه.

ليواطئوا عدة ما حرم الله : أي ليوافقوا عدد الشهورالمحرمة وهي أربعة.

زين لهم سوء عملهم : أي زين لهم الشيطان هذا التأخير للشهر الحرام وهو عمل سيء لأنه إفتيات على الشارع واحتيال على تحليل الحرام.

معنى الآيتين

عاد السياق للحديث على المشركين بعد ذلك الاعتراض الذي كان للحديث عن أهل الكتاب فقال تعالى ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً﴾ لا تزيد ولا تنقص، وأنها هكذا في اللوح المحفوظ ﴿يوم خلق السموات والأرض﴾[3]. وأن منها أربعة أشهر حرم أي محرمات وهي رجب، والقعدة والحجة ومحرم، وحرمها الله تعالى أي حرم القتال فيها لتكون هدنة يتمكن العرب معها من السفر للتجارة وللحج والعمرة ولا يخافون أحداً، ولما

---

(١) المراد بالشهور: ما تتألف منه السنة القمرية، واحدها: شهر، مشتق من الشهرة سميت به الأيام من أوّل ظهور الهلال إلى سراره.

(٢) أي: الصحيح، والإشارة في قوله: ﴿ذلك الدين القيّم﴾ إلى عدة الشهور، وتقسيمها إلى حُرم وغيرها وإلى عدم ارتكاب الذنوب فيها.

(٣) قوله: ﴿يوم خلق السموات والأرض..﴾ قاله ليبيّن أن قضاءه وقدره كان قبل ذلك وأنه سبحانه وتعالى وضع هذه الشهور وسمّاها بأسمائها يوم خلق السماوات والأرض.

جاء الإسلام وأعز الله أهله، نسخ حرمة القتال فيها. وقوله تعالى ﴿ذلك الدين القيّم﴾ أي تحريم هذه الأشهر واحترامها بعدم القتال فيها هو الشرع المستقيم وقوله تعالى ﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ أي لا ترتكبوا الذنوب والمعاصي في الأشهر الحرم فإن ذلك يوجب غضب الله تعالى وسخطه عليكم فلا تعرضوا أنفسكم له، وقوله تعالى ﴿وقاتلوا المشركين﴾ هذا خطاب للمؤمنين يأمرهم تعالى بقتال المشركين بعد انتهاء المدة التي جعلت لهم وهي أربعة أشهر وقوله ﴿كافة﴾[1] أي جميعاً لا يتأخر منكم أحد كما هم يقاتلونكم مجتمعين على قتالكم فاجتمعوا أنتم على قتالهم، وقوله ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ وهم الذين اتقوا الشرك والمعاصي ومعناه أن الله معكم بنصره وتأييده على المشركين العصاة وقوله عز وجل ﴿إنما النسيء[2] زيادة في الكفر﴾ أي إنما تأخير حرمة محرم إلى صفر كما يفعل أهل الجاهليةليستبيحواالقتال في الشهر الحرام بهذه الفُتيا الشيطانية هذا التأخير زيادة في كفر الكافرين[3]، لأنه محاربة لشرع الله وهي كفر قطعاً لقوله تعالى ﴿يضل به الذين كفروا﴾ أي بالنسيء يزدادون ضلالاً فوق ضلالهم. وقوله ﴿يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً﴾ يعني النسيء وهو الشهر الذي أخروه أي أخروا حرمته إلى الشهر الذي بعده ليتمكنوا من القتال في الشهر الحرام، فعاماً يحلون وعاماً يحرمون حتى يوافقوا عدة الأشهر الحُرُم بلا زيادة ولا نقصان، ظناً منهم أنهم ما عصوا مستترين بهذه الفتيا الإبليسية كما قال تعالى ﴿زين لهم سوء أعمالهم﴾ والمزين للباطل قطعاً هو الشيطان. وقوله تعالى ﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ يخبر تعالى أنه عز وجل لا يهدي القوم الكافرين لما هو الحق والخير وذلك عقوبة لهم على كفرهم به وبرسوله، وإصرارهم على ذلك.

---

(١) كافة: معناه جميعاً، وهو مصدر في موضع الحال أي: محيطين بهم ومجتمعين. قالوا: نظير كافة: في كونه لا يبني ولا يجمع: عاقبة وعامة وخاصة.

(٢) قرأ الجمهور: ﴿النسيء﴾ مهموزا وقرأ ورش: ﴿النسيّ﴾ بالياء المشددة، وهو فعيل بمعنى مفعول في قولك: نسأت الشيء أنساه إذا أخّرته، فنقل من منسوء إلى نسيء كما نقل مفتول إلى فتيل لأنّه أخف، وأصل هذا التشريع الجاهلي: أنّ العرب قبل الإسلام كانوا أهل حروب فإذا احتاجوا إلى القتال في الشهر الحرام طلبوا من زعيمهم أن ينسيء المحرّم أي: يؤخره إلى صفر حتى يمكنهم الحرب في المحرم بعد الحج وما زالوا يؤخرون ويقدمون حتى اختلطت الشهور وأصبح رجب جمادى ورمضان شوال وهكذا، ودارت الشهور دورتها، وفي عام حجة الوداع أعلن الرسول ﷺ عن ذلك بقوله: (إنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض) يريد أن الشهور قد رجعت إلى مواضعها، وأصبح كل شهر في موضعه فوقع حجّ النبي ﷺ في موضعه.

(٣) إذ كفروا بالشرك وانكار المعاد وتكذيب الرسل، ونسبة الولد لله تعالى. ثم بالنسيء ازدادوا كفراً.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين :

١ـ بيان أن شهور السنة الهجرية اثنا عشر شهراً[1] وأيامها[2] ثلثمائة وخمسة وخمسون يوماً.

٢ـ بيان أن الأشهر الحرم أربعة وقد بينها الرسول ﷺ وهي رجب، والقعدة والحجة ومحرم.

٣ـ حرمة الأشهر الحرم، ومضاعفة السيآت فيها أي قبح الذنوب فيها.

٤ـ صفة المعيّة لله تعالى وهي معية خاصة بالنصر والتأييد لأهل تقواه.

٥ـ حرمة الاحتيال على[3] الشرع بالفتاوى الباطلة لاحلال الحرام، وأن هذا الاحتيال ما هو إلا زيادة في الإثم.

٦ـ تزيين الباطل وتحسين المنكر من الشيطان.

٧ـ حرمان أهل الكفر والفسق من هداية الله تعالى وتوفيقه لما هو حق وخير حالاً ومآلاً.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾

---

(١) وهي : محرّم ويجمع على محرمات ومحارم ومحاريم، وصفر ويجمع على أصفار وربيع الأول ويجمع على أربعاء وأربعة وربيع الثاني وجمادى الأولى ويجمع على جُماديات وتذكر وتؤنث فيقال : الأولى والأول، وجمادى الآخرة والآخر، ورجب ويجمع على أرجاب ورجاب، وشعبان ويجمع على شعابين وشعبانات، ورمضان ويجمع على رمضانات، ورماضين وأرمضة وشوال ويجمع على شواول وشواويل وشوالات، القعدة ويجمع على ذوات القعدة والحِجة بكسر الحاء وفتحها ويجمع على ذوات الحجة.

(٢) وهي : الأحد ويجمع على آحاد وأوحاد ووحود، والاثنين ويجمع على أثانين، والثلاثاء يذكر ويؤنث ويجمع على ثلاثاوات وأثالث والأربعاء ويجمع على أربعاوات وأرابيع، والخميس ويجمع على أخمسة وأخامس، والجمعة بضم الميم واسكانها وفتحها ويجمع على جمع وجمعات، والسبت ويجمع على سبوت كفتح وفتوح وأسبات كقمع وأقماع.

(٣) اختلف فيمن كان أوّل من نسأ فقيل عمرو بن لحي، وقيل : رجل من كنانة يقال له القلمّس قال شاعرهم :

ومنا ناسىء الشهر القلمّس

وقال الكميت :

ألسنا الناسئين على معد   شهور الحل نجعلها حراما

إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

شرح الكلمات :

مالكم؟ [1] : أي أي شيء ثبت لكم من الأعذار.

انفروا : أي اخرجوا مستعجلين مندفعين.

اثاقلتم : أي تباطأتم كأنكم تحملون أثقالاً.

إلا تنصروه : أي الرسول محمد ﷺ.

ثاني اثنين : أي هو وأبوبكر رضي الله عنه.

في الغار : غار ثور أي في جبل يقال له ثور بمكة.

لصاحبه : هو أبوبكر الصديق رضي الله عنه.

سكينتهُ : أي طمأنينته

كلمة الذين كفروا : هي الدعوة إلى الشرك.

السفلى : أي مغلوبه هابطة لا يسمع لها صوت.

وكلمة الله هي العليا : أي دعوة التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله) هي العليا الغالبة الظاهرة.

---

(١) (ما) : حرف استفهام ومعناه التقرير والتوبيخ.

معنى الآيـات :

هذه الآيات نزلت في غزوة تبـوك فقد بلغ النبي ﷺ أن هرقل ملك الروم قد جمع جمـوعـه لحرب الرسول ﷺ، فأعلن النبي ﷺ التعبئة العامة، وكان الزمن صيفاً حاراً وبالبلاد جدب ومجاعة، وكان ذلك في شوال من سنة تسع، وسميت هذه الغزوة بغزوة العسرة فاستحثّ الربّ تبارك وتعالى المؤمنين ليخرجوا مع نبيهم لقتال أعدائه الذين عزموا على غزوه في عقر داره فأنزل تعالى قوله ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله﴾ والقائل هو رسول الله ﷺ ﴿انفروا في سبيل الله﴾ أي اخرجوا للجهاد ﴿في سبيل الله﴾ أي لأجل رضاه سبحانه وتعالى وما عنده من نعيم مقيم. وقوله ﴿مالكم﴾ أي أي شيء يجعلكم لا تنفرون؟ وأنتم المؤمنون طلاب الكمال والإسعاد في الدارين. وقوله ﴿اثّاقلتم إلى الأرض﴾[1] أي تباطأتم عن الخروج راضين ببقائكم في دوركم وبلادكم. ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من[2] الآخرة؟﴾ ينكر تعالى على من هذه حاله منهم، ثم يقول لهم ﴿فما متاع الحياة الدنيا﴾ أي ماكل مايوجد فيها من متع على اختلافها بالنسبة إلى مافي الآخرة من نعيم مقيم في جوار رب العالمين ﴿إلا قليل﴾ تافه لا قيمة له، فكيف تؤثرون القليل على الكثير والفاني على الباقي. ثم قال لهم ﴿ إلاَّ تنفِروا ﴾ أي إن تخليتم عن نصرته ﷺ وتركتموه يخرج إلى قتال الروم وحده ﴿يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم[3] ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير﴾. وفي هذا الخبر وعيد شديد اهتزت له قلوب المؤمنين.

وقوله تعالى ﴿إلا تنصروه﴾[4] أي إن خذلتموه ولم تخرجوا معه في هذا الظرف الصعب فقـد نصره الله تعالى في ظرف أصعب منه نصره في الوقت الذي أخرجه الذين كفروا ﴿ثـاني اثنين﴾[5] أي هو وأبـوبكر لا غير، ﴿إذ هما في الغار﴾ أي غار ثور، ﴿إذ يقول

---

(١) أصل ﴿اثاقلتم﴾: تثاقلتم فأدغمت التاء في الثاء لقرب مخرجهما وزيدت همزة الوصل للتوصل إلى النطق بالساكن ومثله: اداركوا وادّارأتم، واطيرنا، وازينت.

(٢) أي: أرضيتم بنعيم الدنيا وراحتها بدلا من نعيم الآخرة وسعادتها.

(٣) أي: لا يقعدون عند استنفارهم للجهاد والخروج معه، وأنتم بتخلفكم لا تضرونه شيئا، في الآية دليل على حرمة التثاقل عن الجهاد إذا كان مع كراهته ولا حرمة مع عدم الكراهة إلاّ أن يعيّنه الإمام فيجب.

(٤) أصلها إن الشرطية ادغمت فيها لا النافية، والآية تحمل عتاباً شديداً، ومعنى الآية: إن تركتم نصرته فقد تكفّل الله بها.

(٥) أي: أحد اثنين كثالث ثلاثة ورابع أربعة.

لصاحبه﴾: لما قال لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا يا رسول الله، ﴿لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه﴾ فسكنت نفسه واطمأن وذهب الخوف من قلبه،[1] ﴿وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا﴾ وهي دعوتهم إلى الشرك جعلها ﴿السفلى﴾ مغلوبة هابطة ﴿وكلمة الله﴾ كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله ﴿هي العليا﴾ الغالبة الظاهرة ﴿والله عزيز﴾ غالب[2] لا يغالب ﴿حكيم﴾ في تصرفه وتدبيره، ينصر من أراد نصره بلا ممانع ويهزم من أراد هزيمته بلا مغالب.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

١ـ وجوب الخروج إلى الجهاد إذا دعا الإمام بالدعوة العامة وهو ما يعرف بالتعبئة العامة أو النفير العام.

٢ـ يجب أن يكون النفير في سبيل الله لا في سبيلٍ غير سبيله تعالى.

٣ـ بيان حقارة الدنيا وضآلتها أمام الآخرة.

٤ـ وجوب نصرة رسول الله ﷺ في دينه في أمته في سنته.

٥ـ شرف أبي بكر الصديق وبيان فضله.

٦ـ الإسلام يعلو ولا يعلى عليه.

ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ

---

(١) أي: قلب أبي بكر رضي الله عنه.

(٢) إذ أحبط تعالى أعمال قريش في طلبها الرسول ﷺ لتقتله حيث جعلت مائة ناقة لمن يأتيها برأسه وأنجى الله رسوله منهم وانتهى إلى المدينة ونصره عليهم.

صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾

شـرح الكلمـات :

خفافاً وثقالاً : الخفاف جمع خفيف: وهو الشاب القوي البدن ذا الجدة من زاد ومـركـوب. والثقال جمع ثقيل: وهو الشيخ الكبير والمريض والفقير الذي لا جدة عنده.

ذلكـــم : أي الجهاد بالمال والنفس خير من التثاقل إلى الأرض وترك الجهاد حالاً ومآلاً.

عرضـاً قريباً : غنيمة في مكان قريب غير بعيد.

أو سفراً قاصداً : أي معتدلاً لا مشقة فيه.

الشـــقة : الطريق الطويل الذي لا يقطع إلا بمشقة وعناء.

عفا الله عنك : لم يؤاخـــذك.

معنى الآيـات :

ما زال السياق في الحث على الخروج إلى قتال الروم بالشام ففي هذه الآيات يأمر تعالى المؤمنين بالخروج إلى الجهاد على أي حال كان الخروج من قوة وضعف فليخرج الشاب القوي كالكبير العاجز الضعيف والغني كالفقير فقال تعالى ﴿انفروا خفافاً وثقالاً[(١)] وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم﴾ أعداء الله الكافرين به وبرسوله حتى يدخلوا في الإسلام أو يعطوا الجزية ويقبلوا أحكام الإسلام ﴿ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي نفوركم للجهاد وقتالكم الكافرين إلى الانتهاء بهم إلى إحدى الغايتين خير لكم من الخلود إلى الأرض والرضا بالحياة الدنيا وهي متاع قليل، إن كنتم تعلمون ذلك، وقوله تعالى ﴿لو كان عرضاً[(٢)] قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة[(٣)]﴾ يقول تعالى لرسوله ﷺ لو كان

---

(١) الآية محكمة ولم تنسخ، والمراد منها: أن الإمام إذا أعلن عن النفير العام، وجب الإسراع إلى الخروج معه على أي حال من كبر وصغر وغنى وفقر.

(٢) العرض: ما يعرض من منافع الدنيا، والمراد به هنا: الغنيمة أي: لو كان الذي دعوا إليه عرضا قريبا أو كان الذي دعوا إليه سفراً قاصداً أي: سهلا معلوم الطرق لاتبعوك.

(٣) الشقة: بالضم: السفر إلى أرض بعيدة وهي هنا تبوك، نظير هذه الآية من السنة قوله ﷺ: (لو يعلم أحدهم أنه يجد عظماً سميناً أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء..) المرماة: ظلف الشاة.

أولئك المتخلفون عن الجهاد من المنافقين وضعفة الإيمان قد دعوتهم إلى عرض قريب أي غنيمة حاضرة أو إلى سفر سهل قاصد معتدل لاتبعوك وخرجوا معك، ولكن دعوتهم إلى تبوك وفي زمن الحر والحاجة فبعدت عليهم الشقة فانتحلوا الأعذار إليك وتخلفوا. وقوله تعالى ﴿وسيحلفون بالله﴾ أي لكم قائلين: لو استطعنا أي الخروج لخرجنا معكم. قال تعالى ﴿يهلكون أنفسهم﴾ حيث يجلبون لها سخط[1] الله وعقابه ﴿والله يعلم أنهم لكاذبون﴾ في كل ما اعتذروا به. هذا ما دلت عليه الآيتان الأولى والثانية (٤١ ـ ٤٢) وأما الآية الثالثة فقد تضمنت عتاب الله تعالى لنبيه ﷺ حيث أذن لمن طلب منه التخلف عن النفور والنهوض إلى تبوك وكان من السياسة الرشيدة عدم الإذن لأحد حتى يتميز بذلك الصادق من الكاذب قال تعالى ﴿عفا الله عنك﴾[2] أي تجاوز عنك ولم يؤاخذك وقدم هذا اللفظ على العتاب الذي تضمنه الاستفهام ﴿لم أذنت لهم﴾ تعجيلاً للمسرة للنبي ﷺ إذ لو أخر عن جملة العتاب لأوجد خوفاً وحزناً، وقوله تعالى ﴿حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾ علة للعتاب على الإذن للمنافقين[3] بالتخلف عن الخروج إلى تبوك.

هداية الآيـات

من هداية الآيات:

١ـ إذا أعلن الإمام التعبئة العامة يحرم التخلف عن الجهاد ولا يقعد أحد، إلا بإذن لأجل علة قامت به فاستأذن فأذن له.

٢ـ الجهاد كما يكون بالنفس يكون بالمال وهو خيرٌ من تركه حالاً ومآلاً.

٣ـ الأيمان الكاذبة لإبطال حق أو إحقاق باطل توجب سخط الله تعالى وعذابه.

٤ـ مشروعية العتاب للمحب.

٥ـ جواز مخالفة الأولى على النبي ﷺ لعدم علمه ما لم يعلّمه الله تعالى.

---

(١) بسبب كذبهم ونفاقهم وأيمانهم الكاذبة.

(٢) أخبره بالعفو قبل العتاب رحمة به وإكراماً له، إذ لو قال له لِمَ أذنت لهم أوّلا لكان يطير قلبه ﷺ من الفرق أي: الخوف.

(٣) هؤلاء قوم منافقون قالوا نستأذنه في القعود فإن أذن لنا قعدنا، وإن لم يأذن لنا قعدنا. أمّا غير هؤلاء فقد رخّص له في الإذن لمن شاء في قوله: ﴿فأذن لمن شئت منهم﴾ من سورة النور.

لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾

شرح الكلمات:

لا يستأذنك : أي لا يطلبون منك إذناً بالتخلف عن الجهاد.

وارتابت قلوبهم : أي شكت في صحة ما تدعو إليه من الدين الحق.

في ريبهم : أي في شكهم.

يترددون : حيارى لايثبتون على شيء.

لأعدّوا له عدّة : لهيأوا له ما يلزم من سلاح وزاد ومركوب.

انبعاثهم : أي خروجهم معكم.

فثبطهم : ألقي في نفوسهم الرغبة في التخلف وحببه إليهم فكسلوا ولم يخرجوا.

معنى الآيات:

ما زال السياق في الحديث عن غزوة تبوك وأحوال المأمورين بالنفير فيها فبعد أن عاتب الله تعالى رسوله في إذنه للمتخلفين أخبره أنه لا يستأذنه[1] المؤمنون الصادقون في أن يتخلفوا عن الجهاد بأموالهم وأنفسهم وإنما يستأذنه ﴿الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر

(١) لا يستأذنه المؤمنون لا في القعود ولا في الخروج وإنما هم مع مراده ﷺ فإذا أمر بأمر ابتدروه طاعة ومحبة ورغبة في رضا الله ورسوله ﷺ.

وارتابت قلوبهم﴾ في الإيمان بالله ورسوله ووعده ووعيده، فهم حيارى مترددون لا يدرون أين يتجهون وهي حالة المزعزع العقيدة كسائر المنافقين،وأخبره تعالى أنهم كاذبون في اعتذاراتهم إذ لو أرادوا الخروج لأعدوا له عدته أي احضروا له أهبته من سلاح وزاد وراحلة ولكنهم كانوا عازمين على عدم الخروج بحال من الأحوال، ولو لم تأذن لهم بالتخلف لتخلفوا مخالفين قصدك متحدين أمرك. وهذا عائد إلى ان الله تعالى كره خروجهم لما فيه من الضرر والخطر فثبطهم بما ألقى في قلوبهم من الفشل وفي أجسامهم من الكسل كأنما قيل لهم اقعدوا مع القاعدين. هذا ما دلت عليه الآية (٤٤) ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدته ولكن كره الله انبعاثهم[1] فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين[2]﴾ وقوله تعالى في ختام الآية الأولى (٤٤) ﴿والله عليم بالمتقين﴾[3] فيه تقرير لعلمه تعالى بأحوال ونفوس عباده فما أخبر به هو الحق والواقع،فالمؤمنون الصادقون لا يطلبون التخلف عن الجهاد لإيمانهم وتقواهم، والمنافقون هم الذين يطلبون التخلف لشكهم وفجورهم والله أعلم بهم، ولا ينبئك مثل خبير.

هداية الآيـات

من هداية الآيـات :

١ـ فضيلة الإيمان والتقوى إذ صاحبهما لا يمكنه أن يتخلف عن الجهاد بالنفس والمال.

٢ـ خطر الشك في العقيدة وأنه سبب الحيرة والتردد، وصاحبه لا يقدر على أن يجاهد بمال ولا نفس.

٣ـ سوابق الشر تحول بين صاحبها وبين فعل الخير.

---

(١) ﴿انبعاثهم﴾: أي: خروجهم معك، ومعنى ثبّطهم: حبسهم عنك وخذلهم لأنهم قالوا: إن لم يأذن لنا في القعود أفسدنا بين صفوف المؤمنين.

(٢) القاعدون: هم أولوا الضرر، والعميان والزمنى، والنساء والأطفال. والقائل لهم اقعدوا هو الرسول ﷺ لما طلبوا منه الإذن بالقعود وجائز أن يكون قاله بعضهم لبعض أو قاله الرسول ﷺ حال غضبه عليهم، أو هو تمثيل لخلق الله تعالى داعية القعود في قلوبهم حتى لا يخرجوا فيفسدوا.

(٣) فيه شهادة للمؤمنين الصادقين بالتقوى وهي دعامة الولاية الحقة لله تعالى، فالإيمان والتقوى بهما تثبت ولاية الله للعبد ومن والاه الله فلا خوف عليه ولا حزن.

لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾

شرح الكلمات :

لو خرجوا فيكم : أي مندسين بين رجالكم.

إلا خبالاً : الفساد في الرأى والتدبير.

ولأوضعوا خلالكم : أي لأسرعوا بينكم بالنميمة والتحريش والإثارة لإبقائكم في الفتنة.

وفيكم سماعون لهم : أي بينكم من يكثر السماع لهم والتأثر بأقوالهم المثيرة الفاسدة.

من قبل : أي عند مجيئك المدينة مهاجراً.

وقلّبوا لك الأمور : بالكيد والمكر والاتصال باليهود والمشركين والتعاون معهم.

وظهر أمر الله : بأن فتحت مكة ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

وهم كارهون : أي لمجيء الحق وظهور أمر الله بانتصار دينه.

معنى الآيتين :

ما زال السياق الكريم في فضح نوايا المنافقين وكشف الستار عنهم فقال تعالى ﴿لو خرجوا فيكم﴾[1] أيها الرسول والمؤمنون أي إلى غزوة تبوك ﴿ما زادوكم إلا خبالاً﴾[2] أي ضرراً وفساداً وبلبلة لأفكار المؤمنين بما ينفثونه من سموم القول للتخذيل والتفشيل،

(١) في هذا الإخبار الإلهي تسلية للرسول ﷺ والمؤمنين من أجل تخلف المنافقين عنهم.

(٢) الاستثناء منقطع أي: ما زادوكم قوة ولكن طلبوا الخبال لكم. والعادة: أنّ الاستثناء المنقطع يكون: بمعنى لكن إذ ليس هو جزء من المستثنى منه.

﴿ولأوضعوا﴾[1] أي أسرعوا ركائبهم ﴿خلالكم﴾ أي بين صفوفكم بكلمات التخذيل والتثبيط ﴿يبغونكم﴾ بذلك ﴿الفتنة﴾ وهي تفريق جمعكم وإثارة العداوة بينكم بما يحسنه المنافقون في كل زمان ومكان من خبيث القول وفاسده وقوله تعالى ﴿وفيكم سماعون لهم﴾ أي وبينكم أيها المؤمنون ضعاف الإيمان يسمعون منكم وينقلون لهم أخبار أسراركم كما أن منكم من يسمع لهم ويطيعهم ولذا وغيره كره الله انبعاثهم وثبطهم فقعدوا مع القاعدين من النساء والأطفال والعجز والمرضى، وقوله تعالى ﴿والله عليم بالظالمين﴾ الذين يعملون على إبطال دينه وهزيمة أوليائه. فلذا صرفهم عن الخروج معكم إلى قتال أعدائكم من الروم والعرب المتنصرة بالشام. وقوله تعالى في الآية الثانية (٤٨) ﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل﴾ بل من يوم هاجرت إلى المدينة ووجد بها الإسلام وهم يثيرون الفتن بين أصحابك للإيقاع بهم، وفي أحد رجع ابن أبي بثلث الجيش وهم بنو سلمة وبنو حارثة بالرجوع عن القتال لولا أن الله سلم ﴿وقلبوا لك الأمور﴾[2] وصرفوها في وجوه شتى بقصد القضاء على دعوتك فظاهروا المشركين واليهود في مواطن كثيرة وكان هذا دأبهم ﴿حتى جاء الحق﴾ بفتح مكة ﴿وظهر أمر الله﴾ بدخول أكثر العرب في دين الله ﴿وهم كارهون﴾ لذلك بل أسفون حزنون، ولذا فلا تأسفوا على عدم خروجهم معكم، ولا تحفلوا به أو تهتموا له، فإن الله رحمة بكم ونصراً لكم صرفهم عن الخروج معكم. فاحمدوا الله وأثنوا عليه بما هو أهله، ولله الحمد والمنة.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

١ـ وجود منافقين في صفوف المؤمنين خطر عليهم وضرر كبير لهم فلذا ينبغي أن لا يُشركوا في أمر، وأن لا يعول عليهم في مهمة.

٢ـ وجوب الأخذ بالحيطة في الأمور ذات البال والأثر على حياة الإسلام والمسلمين.

---

(١) الإيضاع: سرعة السير، يقال: أوضع يوضع إيضاعاً إذا أسرع في سيره. قال دريد بن الصمة:

يا ليتني فيها جذع أخبّ فيها وأضع

(٢) الأمور: جمع أمر وهو اسم مبهم كشيء، قال الشاعر:

ولكن مقادير جرت وأمور

والألف واللام للجنس: أي: أمور تعرفونها وأمور تنكرونها، وحتى: غائية لتقليبهم الأمور.

٣ـ المنافق يسوءه عزة الإسلام والمسلمين ويحزن لذلك.

٤ـ تدبير الله تعالى لأوليائه خير تدبير فلذا وجب الرضا بقضاء الله وقدره والتسليم به.

وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾

شرح الكلمات:

ومنهم : أي من المنافقين وهو الجد بن قيس.

إئذن لي : أي في التخلف عن الجهاد.

ولا تفتني : أي لا توقعني في الفتنة بدعوى أنه إذا رأى نساء الروم لا يملك نفسه.

حسنة تسؤهم : الحسنة كل ما يحسن من نصر وغنيمة وعافية ومعنى تسؤهم أي يكربون لها ويحزنون.

قد أخذنا أمرنا من قبل : أي احتطنا للأمر ولذا لم نخرج معهم.

إحدى الحسنين : الأولى الظفر بالعدو والانتصار عليه والثانية الشهادة المورثة للجنة.

فتربصـــوا : أي انتظروا فإنا معكم من المنتـظرين.

معنى الآيـات :

ما زال السياق في الحـديث عن المنـافقين المتخلفين عن غزوة تبوك فيقول تعالى ﴿ومنهم من يقـول ائـذن لي﴾ أي في التخلف عن الجهاد،﴿ولا تفتني﴾ بإلزامك لي بالخروج أي لا توقعني في الفتنة، فقد روى أن النبي ﷺ قال له: هل لك في[1] بلاد بني الأصفر؟ فقال إني مغرم بالنساء وأخشى إن رأيت نساء بني الأصفر[2] (وهم الروم) لا أصبر عنهن فأفتن، والقائل هذا هو الجد بن قيس أحد زعماء المنافقين في المدينة فقال تعالى دعاء عليه ورداً لباطله: ﴿ألا في الفتنة سقطوا﴾ وأي فتنة أعظم من الشرك والنفاق؟ ﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ به وبأمثاله من أهل الكفر والنفاق، هذا ما دلت عليه الآية الأولى أما الآية الثانية (٥٠) فقد تضمنت الكشف عما يقوله المنافقون في أنفسهم أنه إن تصب الرسول والمؤمنين حسنة من نصر أو غنيمة وكل حال حسنة يسؤهم ذلك أي يكربهم ويحزنهم، وإن تصبهم سيئة من هزيمة أو قتل وموت يقولوا فيما بينهم ﴿قد أخذنا أمرنا﴾ أي احتـطنـا للأمـر فلم نخـرج معهم ﴿ويتـولوا﴾ راجعين إلى بيوتهم وأهليهم ﴿وهم فرحـون﴾. هذا ما تضمنته الآية التي هي قوله تعالى ﴿إن تصبك حسنة تسؤهم[3]، وان تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون[4]﴾ أما الآيتان الثالثة والرابعة (٥١ ـ ٥٢) فقد علم الله سبحانه وتعالى رسوله ما يقوله إغاظة لأولئك المنافقين وإخباراً لهم بما يسؤهم فقال ﴿قل لن يصيبنا﴾ أي من حسنة أو سيئة إلا ما كتب الله[5] لنا وما يكتبه ربنا لنا لن يكون إلا خيراً لأنه مولانا ﴿وعلى الله فيلتوكل المؤمنون﴾ ونحن مؤمنون وعلى

---

(١) في رواية ياجدُّ هل لك في جلاد بني الأصفر لتتخذ منهم سراري ووصفاء فقال الجد الخ..

(٢) قيل: سمي الروم بني الأصفر: لأن الحبشة غزتهم وسبتهم فنشأ جيل أصفر اللون بين البياض والسواد، وهو اللون الأصفر.

(٣) ﴿إن تصبك حسنة﴾ جملة شرطية وجملة ﴿تسؤهم﴾ جواب وجزاء لها كما أن جملة ﴿وإن تصبهم﴾ شرط، والجزاء ﴿يقولوا﴾ الخ.

(٤) ﴿ويتولوا﴾ أي: راجعين إلى بيوتهم ومجالسهم وهم كافرون، فهم متولون في الحقيقة عن الإيمان ﴿فرحون﴾ أي: معجبون بنجاحهم المؤقت.

(٥) أي: في اللوح المحفوظ الذي هو كتاب المقادير، أو هو ما أخبرنا به كتابه القرآن الكريم من أنّا إمّا نظفر فيكون الظفر حسنى لنا وإمّا أن نقتل فتكون الشهادة حسنى لنا.

ربنا متوكلون ، وقال له : ﴿قل هل تربصون بنا﴾[1] أي هل تنتظرون بنا إلا إحدى الحسنيين[2] : النصر والظهور على أهل الشرك والكفر والنفاق أو الاستشهاد في سبيل الله ، ثم النعيم المقيم في جوار رب العالمين وعليه ﴿فتربصوا إنا معكم متربّصون﴾[3] ، وسوف لا نشاهد إلا ما يسرنا ويسوءكم .

هداية الآيـات

من هداية الآيـات :

١ـ فضيحة الجد بن قيس وتسجيل اللعنة عليه وتبشيره بجهنم .

٢ـ بيان فرح المنافقين والكافرين بما يسوء المسلمين ، وبيان استيائهم لما يفرح المسلمين وهي علامة النفاق البارزة في كل منافق .

٣ـ وجوب التوكل على الله وعدم الاهتمام بأقوال المنافقين .

٤ـ بيان أن المؤمنين بين خيارين في جهادهم : النصـر أو الشهادة .

٥ـ مشروعية القول الذي يغيظ العدو ويحزنه .

قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ
قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ
إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ
إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾
فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم
بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾

---

(١) التربص : الانتظار ، والاستفهام للتوبيخ .

(٢) الحسنيان : هما الغنيمة والشهادة .

(٣) ﴿فتربصوا﴾ هذا الأمر للتهديد والوعيد ، كأنما يقول لهم : انتظروا مواعد الشيطان فإنا مُنتظرون مواعد الرحمن ، وشتان بين ما ننتظر وما تنتظرون ! !

شرح الكلمات :

طوعاً أو كرهاً : أي وأنتم طائعون أو أنتم مكرهون على الانفاق.

إنكم كنتم قوماً فاسقين : الجملة علة لعدم قبول نفقاتهم.

كسالى : متثاقلون لعدم إيمانهم في الباطن بفائدة الصلاة.

فلا تعجبك أموالهم : أي لا تستحسنوا أيها المسلمون ما عند المنافقين من مال وولد.

وتزهق أنفسهم : أي تفيض وتخرج من أجسامهم.

معنى الآيات :

ما زال السياق في تعليم الله تعالى رسوله ﷺ كيف يرد على المنافقين فقال له قل لهم أيها الرسول ﴿انفقوا﴾[1] حال كونكم طائعين أو مكرهين ﴿لن يتقبل منكم﴾، أي أخبرهم أن ما ينفقونه في هذا الخروج إلى تبوك وفي غيره سواء أنفقوه باختيارهم أو كانوا مكرهين عليه لن يتقبله الله منهم لأنهم[2] كانوا قوماً فاسقين بكفرهم بالله وبرسوله وخروجهم عن طاعتهما. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٥٣) أما الآية الثانية (٥٤) فقد أخبر تعالى عن الأسباب الرئيسية التي حالت دون قبول نفقاتهم وهي أولاً الكفر بالله وبرسوله، وثانياً اتيانهم الصلاة وهم كسالى كارهون، وثالثاً كراهيتهم الشديدة لما ينفقونه قال تعالى ﴿وما منعهم[3] أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى[4] ولا ينفقون إلا وهم كارهون﴾[5] هذا ما تضمنته الآية الثانية. أما الآية الثالثة (٥٥) فإن الله تعالى ينهى رسوله والمؤمنين عن أن تعجبهم أموالهم وأولادهم مهما بلغت في الكثرة والحسن فيقول ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم﴾ أي لا تستحسنوها ولا تخبروهم بذلك. وبين تعالى لرسوله

---

(١) روي أن هذه الآية نزلت في الجد بن قيس إذ هو الذي قال للرسول ﷺ إئذن لي في القعود عن الخروج إلى قتال الروم وهذا مالي أعينك به والأمر في قوله: ﴿انفقوا﴾ للتسوية أي: انفقوا أولا تنفقوا فكلا الأمرين سواء، في عدم قبول ما تنفقون.

(٢) الجملة تعليلية أي: قوله: ﴿لن يتقبل منكم﴾ الخ ذكرت تعليلا لعدم قبول ما ينفقون.

(٣) هذا بيان للتعليل السابق في عدم قبول نفقاتهم مع ذكر أسباب أخرى حالت دون قبول ما ينفقون.

(٤) قال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا كان في جماعة صلى وإذا انفرد لم يصل. أي: المنافق لأنه لا يرجو على الصلاة ثواباً، ولا يخشى على تركها عقاباً وهذا منشأ الكسل في الصلاة وغيرها من سائر العبادات.

(٥) هنا مسألتان: الأولى: أنّ من مات على الكفر لا ينفعه ما عمله في الدنيا من خير إلاّ انه يخفف عنه العذاب لحديث أبي طالب، وأنه في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه. كما أنه قد يكون سببا في سعة رزقه في الدنيا للحديث، وأما الكافر فيطعم. الثانية أنّ من أسلم منهم يثاب على ما عمله من الخير أيام كفره.

علة اعطائهم ذلك وتكثيره لهم فقال ﴿إنما يريد الله ليعذبهم[1] بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ ووجه تعذيبهم بها في الحياة الدنيا أن ما ينفقونه من المال في الزكاة والجهاد يشعرون معه بألم لا نظير له لأنه إنفاق يعتبرونه ضدهم وليس في صالحهم، إذ لا يريدون نصر الإسلام ولا ظهوره، وأما أولادهم فالتعذيب بهم هو أنهم يشاهدونهم يدخلون في الإسلام ويعملون به ولا يستطيعون أن يردوهم عن ذلك، أيّ ألم نفسي أكبر من أن يكفر ولد الرجل بدينه ويدين بآخر من شروطه أن يبغض الكافر به ولو كان أباً أو أماً أو أخاً أو أختاً أو أقرب قريب؟ وزيادة على هذا يموتون وهم كافرون فينتقلون من عذاب إلى عذاب أشد، وبهذا سلى الرب تعالى رسوله والمؤمنين بيان علة ما أعطى المنافقين من مال وولد ليعذبهم بذلك لا ليسعدهم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

١- تقرير مبدإ أن الرياء مبطلة للعمل كالشرك محبط للعمل[2].

٢- إطلاق الفسق على الكفر فكل كافر فاسق على الإطلاق..

٣- حرمة التكاسل في الصلاة وأن ذلك من صفات المنافقين.

٤- وجوب رضا النفس بما ينفق العبد في سبيل الله زكاة أو غيرها.

٥- كراهية استحسان المسلم لِماَ عند أهل الفسق والنفاق من مال ومتاع.

وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ

(١) فعل الإرادة يعدي بنفسه تقول: أردت خيراً، وعدي هنا باللام لأجل التعليل كقول الشاعر:

أريد لأنسى حبها فكأنما   تمثل لي ليلى بكل مكان

(٢) لقوله تعالى: ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ الآية، وقول الرسول ﷺ في عبدالله بن جدعان وقد قالت له عائشة رضي الله عنها يارسول الله إن ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذلك نافعه؟ قال: (لا ينفعه لأنه لم يقل يوماً ربّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين) رواه مسلم.

﴿فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

شرح الكلمات :

وما هم منكم : أي في باطن الأمر لأنهم كافرون ووجوههم وقلوبهم مع الكافرين.

يفرقون : أي يخافون خوفاً شديداً منكم.

ملجأ : أي مكاناً حصيناً يلجأون إليه.

أو مغارات : جمع مغارة وهي الغار في الجبل.

أو مدخلاً : أي سرباً في الأرض يستتر فيه الخائف الهارب.

يجمحون : يسرعون سرعة تتعذر مقاومتها وإيقافها.

يلمزك : أي يعيبك في شأن توزيعها ويطعن فيك.

إذا هم يسخطون : أي غير راضين

حسبنا الله : أي كافينا الله كل ما يهمنا.

إلى الله راغبون : إلى الله وحده راغبون أي طامعون راجون.

معنى الآيات :

ما زال السياق الكريم في هتك أستار المنافقين وإظهار عيوبهم وكشف عوراتهم ليتوب منهم من أكرمه الله بالتوبة فقال تعالى عنهم ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم﴾[1] أي من أهل ملتكم ودينكم، ﴿وما هم منكم﴾ أي في واقع الأمر إذ هم كفار منافقون ﴿ولكنهم قوم يفرقون﴾ أي يخافون منكم خوفاً شديداً فلذا يحلفون لكم إنهم منكم لتؤمنوهم على أرواحهم وأموالهم، ولبيان شدة فرقهم منكم وخوفهم من سيوفكم قال تعالى : ﴿لو يجدون

---

(١) لأنهم يتخذون أيمانهم الكاذبة وقاية يتقون بها ما يخافونه من بطش المؤمنين بهم إذا عرفوا أنهم كافرون كما قال تعالى من سورتهم ﴿اتخذوا أيمانهم جنّة﴾.

ملجأ﴾[1] أي حصناً ﴿أو مغارات﴾ أي غيراناً في جبال ﴿أو مدخلاً﴾[2] أي سرباً في الأرض ﴿لولوا﴾ أي أدبروا اليها ﴿وهم يجمحون﴾[3] أي مسرعين ليتمنعوا منكم. هذا ما دلت عليه الآية الأولى والثانية أما الآية الثالثة والرابعة (٥٨ - ٥٩) فقد أخبر تعالى أن من المنافقين من يلمز الرسول ﷺ أي يطعن فيه ويعيبه في شأن قسمة الصادقات وتوزيعها فيتهم الرسول ﷺ بأنه لا يعدل في القسمة فقال تعالى ﴿ومنهم من يلمزك[4] في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا﴾ أي عن الرسول وقسمته ﴿وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون﴾ هذا ما تضمنته الآية (٥٨) وأما الآية الأخيرة (٥٩) فقد أرشدهم الله تعالى إلى ما كان ينبغي أن يكونوا عليه فقال عز وجل ﴿ ولو أنهم رضوا[5] ما آتاهم الله ورسوله﴾، أي من الصدقات ﴿وقالوا حسبنا الله﴾ أي كافينا الله ﴿سيؤتينا الله من فضله﴾ الواسع العظيم ورسوله بما يقسم علينا ويوزعه بيننا ﴿إنا إلى الله﴾ وحده ﴿راغبون﴾ طامعون راجعون أي لكان خيراً لهم وأدْرَكَ لحاجتهم.

هداية الآيـات

من هداية الآيـات :

١- الأيمان الكاذب شعار المنافقين وفي الحديث آية المنافق ثلاث:
(إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أتمن خان).

٢- الجبن والخور والضعف والخوف من لوازم الكفر والنفاق.

٣- عيب الصالحين والطعن فيهم ظاهرة دالة على فساد قلوب ونيات من يفعل ذلك

٤- مظاهر الرحمة الإلهية تتجلى في إرشاد المنافقين إلى أحسن ما يكونوا عليه ليكملوا

---

(١) الملجأ مكان اللجأ يقال لجأت إلى كذا: إذا أويت إليه واعتصمت به والجأت امري إليه أي: أسندته.

(٢) المدخل: مفتعل اسم كان للادّخال الذي هو افتعال من الدخول قلبت فيه تاء الافتعال دالاً لوقوعها بعد الدال فصارت مدخلا بدل متدخل، ونظيره: إدّان أصلها إتدان، وقرأها يعقوب وحده أو مدخلا بفتح الميم وإسكان الدال اسم مكان من دخل.

(٣) الجموح: نفور في إسراع.

(٤) روي أن النبي ﷺ أعطى بعض رعاة الغنم شيئا لفقرهم فطعن أبو الحواظ المنافق فقال: ما هذا بالعدل كيف يضع صدقاتكم في رعاء الغنم إعانة لهم. كما أنّ ذا الخويصرة التميمي واسمه حرقوص بن زهير وهو أصل الخوارج قال للرسول ﷺ: اعدل يا رسول الله فقال له: (ويلك ومَن يعدل إذا لم أعدل) فنزلت الآية وقال عمر دعني أضرب عنقه يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ: (معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي).

(٥) جواب لو محذوف تقديره: لكان خيرا لهم، وهو مذكور في التفسير في آخر الحديث.

ويسعدوا في الدارين.

٥ـ لا كافي إلا الله، ووجوب انحصار الرغبة فيه تعالى وحده دون سواه.

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

شرح الكلمات:

الصدقات : جمع صدقة وهي هنا الزكاة المفروضة في الأموال.

للفقــراء : جمع فقير وهو من ليس له ما يكفيه من القوت ولا يسأل الناس.

والمسـاكين : جمع مسكين وهو فقير ليس له ما يكفيه ويسأل الناس ويذل نفسه بالسؤال.

والعاملين عليها : أي على جمعها وجبايتها وهم الموظفون لها.

والمؤلفة قلوبهـم : هم أناس يرجى إسلامهم أو بقاؤهم عليه إن كانوا قد أسلموا وهم ذوو شأن وخطر ينفع الله بهم إن أسلموا وحسن إسلامهم.

وفي الرقـاب : أي في فك الرقـاب أي تحريرها من الرق، فيعطى المكاتبون ما يسددون به نجوم أو أقساط كتابتهم.

وفـي سبيل الله : أي الجهاد لإعداد العدة وتزويد المجاهدين بما يلزمهم من نفقة.

وابن السـبيل : أي المسافر المنقطع عن بلاده ولو كان غنياً ببلاده.

فريضة من الله : أي فرضها الله تعالى فريضة على عباده المؤمنين.

معنى الآيـة الكريمة:

بمناسبة لمز المنافقين الرسول ﷺ والطعن في قسمته الصدقات بين تعالى في هذه الآية الكريمة أهل الصدقات المختصين بها. والمراد بالصدقات الزكوات وصدقة التطوع

فقال عز وجل ﴿إنما الصدقات﴾ محصورة في الأصناف الثمانية التي تذكر وهم:

(١) الفقراء[١] وهم المؤمنون الذين لا يجدون ما يسد حاجتهم الضرورية من طعام وشراب وكساء ومأوى.

(٢) المساكين[٢] وهم الفقراء الذين لا يجدون ما يسد حاجتهم ولم يتعففوا[٣] فكانوا يسألون الناس ويظهرون المسكنة[٤] لهم والحاجة.

(٣) الموظفين فيها من سعاة جباة وأمناء وكتاب وموزعين يعطون على عملهم فيها أجرة أمثالهم في العمل الحكومي.

(٤) المؤلفة قلوبهم وهم من يرجى نفعهم للإسلام والمسلمين لمناصبهم وشوكتهم في أقوامهم، فيعطون من الزكاة تأليفاً أي جمعاً لقلوبهم على الإسلام ومحبته ونصرته ونصرة أهله، وقد يكون أحدهم لم يسلم بعد فيعطى ترغيباً له في الإسلام، وقد يكون مسلماً لكنه ضعيف الإسلام فيعطى تثبيتاً له وتقوية على الإسلام.

(٥) في الرقاب وهو مساعدة المكاتبين على تسديد أقساطهم ليتحرروا أما شراء عبد بالزكاة وتحريره فلا يجوز لأنه يعود بالنفع على دافع الزكاة لأن ولاء المعتوق له.

(٦) الغارمين جمع غارم وهو من ترتبت عليه ديون بسبب ما أنفقه في طاعة الله تعالى على نفسه وعائلته، ولم يكن لديه مال لا نقد ولا عرض يسدد به ديونه.

(٧) في سبيل الله وهو تجهيز الغزاة والإنفاق عليهم تسليحاً وإركاباً وطعاماً ولباساً.

(٨) ابن السبيل وهم المسافرون ينزلون ببلد وتنتهي نفقتهم فيحتاجون فيعطون من الزكاة

---

(١) قيل: الفقير هو صفة مشبهة من الفقر أي المتصف بالفقر وهو: عدم امتلاك ما به الكفافة لحاجته المعاشية وضده الغنى، والمسكين: ذو المسكنة وهي المذلة التي تحصل بسبب الفقر، والفقير والمسكين يغني ذكر أحدهما عن الآخر، أمّا إذا ذكرا معاً فلكلّ واحد حقيقة كما تقدم، وفي أيهما أشدّ فقراً خلاف، وأحسن ما قيل هو أنّ الفقير هو الذي له بعض ما يكفيه ويقيمه، والمسكين: الذي لا شيء له.

(٢) قال القرطبي: فائدة الخلاف في الفقراء والمساكين تظهر فيمن أوصى بثلث ماله لفلان وللفقراء والمساكين فمن قال هما صنف واحد يكون الثلث الموصى به نصفه لفلان ونصفه الآخر للفقراء، ومن قال: هما صنفان يقسم الثلث الموصى به بينهم أثلاثاً.

(٣) اختلف في حالة الفقر التي يصح للفقير أن يأخذ معها الزكاة، فمن قائل إن لم يكن له مائتا درهم جاز له أخذ الزكاة، ومن قائل: خمسون درهماً ومن قائل: أربعون درهما. ومن قائل: من كان قويا على الكسب لقوة بدنه فلا يعطى الزكاة لحديث: (لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرّة سوي).

(٤) ورد الوعيد الشديد فيمن يطلب الصدقة وهو غني عنها من ذلك قوله ﷺ: (من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من النار) رواه أبو داود. قالت العلماء: إنّ الذي له شبع يوم وليلة لا يحل له أن يسأل. اختلف في نقل الزكاة من بلد إلى بلد، والراجح: الجواز لضرورة الفقر وشدته.

ولو كانوا أغنياء ببلادهم.

وقوله تعالى ﴿فريضة[1] من الله﴾ أي هذه الصدقات وقسمتها على هذا النحو جعله الله تعالى فريضة لازمة على عباده المؤمنين. وقوله ﴿والله عليم﴾ أي بخلقه وأحوالهم ﴿حكيم﴾ في شرعه وقسمته، فلذا لا يجوز أبداً مخالفة هذه القسمة فلا يدخل أحد فيعطى من الزكاة وهو غير مذكور في هذه الآية وليس شرطاً أن يعطى كل الأصناف فقد يعطى المرء زكاته كلها في الجهاد أو في الفقراء والمساكين، أو في الغارمين أو المكاتبين وتجزئة وإن كان الأولى أن يقسمها بين الأصناف المذكورة من وجد منها، إذ قد لا توجد كلها في وقت واحد.

هداية الآية

من هداية الآية :

١ـ تقرير فرضية الزكاة.

٢ـ بيان مصارف الزكاة.

٣ـ وجوب التسليم لله تعالى في قسمته بعدم محاولة الخروج عنها.

٤ـ إثبات صفات الله تعالى وهي هنا: العلم والحكمة، ومتى كان الله تعالى عليماً بخلقه وحاجاتهم حكيماً في تصرفه وشرعه وجب التسليم لأمره والخضوع له بالطاعة والانقياد.

وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ

(١) ﴿فريضة﴾ منصوب على المصدر المؤكد إذ تقدير الكلام: إنما فرض الله الصدقات للفقراء والمساكين الخ.. فريضة منه تعالى وهو العليم بخلقه الحكيم في تدبيره وصنعه.

﴿مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾

شرح الكلمات:

يؤذون النبي : أي الرسول محمداً ﷺ، والأذى المكروه يصيب الإنسان كثيراً أو يسيراً.

هو أذن : أي يسمع من كل من يقول له ويحدثه وهذا من الأذى.

قل أذن خير لكم : أي هو يسمع من كل من يقول له لا يتكبر ولكن لا يقر إلا الحق ولا يقبل إلا الخير والمعروف فهو أُذن خيرٍ لكم لا أُذن شر مثلكم أيها المنافقون.

ويؤمن للمؤمنين : أي يصدق المؤمنين الصادقين من المهاجرين والأنصار أما غيرهم فإنه وإن يسمع منهم لا يصدقهم لأنهم كذبة فجرة.

والله : أحق أن يرضوه ورسوله أحق أن يرضوه.

من يُحادد الله ورسوله : أي يعاديهما، ويقف دائماً في حدّ وهما في حد فلا ولاء ولا موالاة أي لا محبة ولا نصرة.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في هتك أستار المنافقين وبيان فضائحهم قال تعالى: ﴿ومنهم[1] الذين يؤذون النبي﴾ أي من المنافقين أفراد يؤذون النبي بالطعن فيه وعيبه بما هو براء منه، ويبين تعالى بعض ذلك الأذى فقال ﴿ويقولون هو أذن﴾ أي **يسمع** كل ما يقال له، وحاشاه ﷺ أن يقر سماع الباطل أو الشر أو الفساد، وإنما يسمع ما كان خيراً ولو كان من منافق يكذب ويحسن القول. وأمر الله تعالى رسوله أن يرد عليهم بقوله ﴿قل أذن خير[2] لكم﴾ يسمع ما فيه خير لكم، ولا يسمع ما هو شر لكم. إنه لما كان لا يواجههم بسوء صنيعهم،

(١) قيل هذه الآية نزلت في عتّاب بن قشير إذ قال: إنما محمد أذن يقبل كل ما قيل له. وقيل: نزلت في نبتل بن الحارث الذي قال فيه الرسول ﷺ: (منِ أراد أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث) وكان ماكرا خبيثاً مشوّه الخلقة.

(٢) قرىء بالرفع والتنوين ﴿أذنٌ خيرٌ لكم﴾ وقرأ الجمهور بالإضافة: ﴿اذن خيرٍ﴾.

وقبح أعمالهم حملهم هذا الجميل والإحسان على أن قالوا: ﴿هو أذن﴾ طعناً فيه ﷺ وعيباً له. وقوله تعالى ﴿يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾ هذا من جملة ما أمر الرسول ﷺ أن يقـول للمنـافقين رداً على باطلهم. أنـه ﷺ يؤمن بالله ربـاً وإلهـاً، ﴿ويؤمن للمؤمنين﴾ أي بصـدقهم فيما يقولون وهذا من خيريّته ﷺ وقوله﴿ورحمة[1] للذين آمنوا منكم﴾أيضاً من خيريّته فهو ﷺ رحمة لمن آمن به واتبع النور الذي جاء به فكمل عليه وسعد به في حياتيه. وقوله تعالى ﴿والذين يؤذون رسول الله﴾ أي بأي نوع من الأذى قل أو كثر توعدهم الله تعالى بقوله ﴿لهم عذاب أليم﴾ وهو لا محالة نازل بهم وهم ذائقوه حتماً هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٦١) أما الآية الثانية (٦٢) فقد أخبر تعالى عن المنافقين أنهم يحلفون للمؤمنين بأنهم ما طعنوا في الرسول ولا قالوا فيه شيئاً يريدون بذلك إرضاء المؤمنين حتى لا يبطشوا بهم انتقـامـاً لكـرامة نبيهم قال تعالى ﴿يحلفون بالله[2] لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضـوه[3] إن كانـوا مؤمـنـين﴾ أي فبـدل أن يرضـوا الـمـؤمـنـين كان الـواجـب أن يرضـوا الله تعـالـى بالـتـوبـة إلـيه ويرضوا الرسول بالإيمان ومتابعته إن كانوا كما يزعمون أنهم مؤمنون. وقوله في الآية الثالثة (٦٣) ﴿ألم يعلموا[4] أنه من يحادد الله ورسوله﴾ أي يشاقهما ويعاديهما فإن له جزاء عدائه ومحاربته نار جهنم خالداً فيها ﴿ذلك الخزي العظيم﴾ أي كونه في نار جهنم خالداً فيها لا يخرج منها هو الخزي العظيم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

---

(١) أي: وهو رحمة. على أنّ رحمة: خبر لمبتدأ محذوف وقرىء: ورحمةٍ بالجر عطفا على ﴿خيرٍ لكم﴾ وفيه بُعدٌ كبير.

(٢) روي أنّ نفراً من المنافقين منهم الجلاس بين سويد ووديعة بن ثابت فقالوا: إن كان ما يقول محمد حقاً لنحن شرّ من الحمير وبينهم غلام فغضب لقولهم هذا وأخبر به الرسول ﷺ فكذبوه في قوله فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿سيحلفون بالله لكم..﴾ الخ.

(٣) قال سيبويه: تقدير الكلام، والله أحق أن يرضوه ورسوله أحق أن يرضوه ثم حذف طلباً للإيجاز كما قال الشاعر:

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأي مختلف

والحامل على هذا التقدير لأن الرسول ﷺ لم يرض بقول الرجل: ما شاء الله وشئت فقال له: (قل ما شاء الله وحده) لأنّ العطف بالواو لا يقتضي الترتيب.

(٤) الاستفهام للانكار والتوبيخ والمعنى: ألم يعلموا شأناً عظيماً هو من يجادل الله ورسوله له نار جهنم، والمحادة: المعاداة والمشاقة كأنّ كل واحد واقف في حدّ لا يتصل بالآخر، والفاء في ﴿فأن له﴾ لربط جواب شرط ﴿من﴾ وأعيدت أنّ في الجواب لتوكيد أنّ المذكورة قبل الشرط توكيداً لفظياً.

١ـ حرمة أذية رسول الله بأي وجه من الوجوه.

٢ـ كون النبي ﷺ رحمة للمؤمنين دعوة للإيمان والإسلام.

٣ـ توعد الله تعالى من يؤذى رسوله بالعذاب الأليم دليل على كفر من يؤذي رسول الله ﷺ.

٤ـ بيان كذب المنافقين وجبنهم حيث يحلفون[1] للمؤمنين أنهم ما طعنوا في الرسول وقد طعنوا بالفعل، وإنما حلفهم الكاذب يدفعون به غضب المؤمنين والانتقام منهم.

٥ـ وجوب طلب رضا الله تعالى بفعل محابه وترك مساخطه.

٦ـ توعد من يحادد الله ورسوله بالعذاب الأليم.

يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

شرح الكلمات:

يحذر المنافقون : أي يخافون ويحترسون.

تنزّل عليهم سورة : أي في شأنهم فتفضحهم بإظهار عيبهم.

---

(١) في الآية دليل جواز الحلف بالله وعدم جواز الحلف بغيره لقول الرسول ﷺ (من حلف فليحلف بالله أو ليصمت ومن حلف له فليصدق).

تنبّئهم بما في قلوبهم : أي تخبرهم بما يضمرونه في نفوسهم.

قل استهزئوا : الأمر هنا للتهديد.

مخرج ما تحذرون : أي مخرجه من نفوسكم مظهره للناس أجمعين.

نخوض ونلعب : أي نخوض في الحديث على عادتنا ونلعب لا نريد سباً ولا طعناً.

تستهزئون : أي تسخرون وتحتقرون.

معنى الآيات :

ما زال السياق في الحديث عن المنافقين لكشف الستار عنهم وإظهارهم على حقيقتهم ليتوب منهم من تاب الله عليه قال تعالى مخبراً عنهم ﴿يحذر[1] المنافقون أن تنزّل عليهم[2] سورة تنبّئهم بما في قلوبهم﴾ أي يخشى المنافقون أن تنزل في شأنهم على رسول الله ﷺ ﴿سورة تنبئهم﴾ أي تخبرهم بما في قلوبهم فتفضحهم، ولذا سميت هذه السورة بالفاضحة[3] وقوله تعالى لرسوله ﴿قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون﴾ يهددهم تعالى بأن الله مخرج ما يحذرون إخراجه وظهوره مما يقولونه في خلواتهم من الطعن في الإسلام وأهله. وقوله تعالى ﴿ولئن سألتهم﴾ أي عما قالوا من الباطل. لقالوا ﴿إنما كنا نخوض ونلعب﴾[4] لا غير. قل لهم يا رسولنا ﴿أبا لله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون﴾ وذلك أن نفراً من المنافقين في غزوة تبوك قالوا في مجلس لهم: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً ولا أكذب ألسناً ،ولا أجبن عند اللقاء! .فبلغ ذلك النبي ﷺ ونزلت هذه الآيات: وجاءوا يعتذرون لرسوله الله فأنزل الله، ﴿لا تعتذروا[5] قد كفرتم بعد إيمانكم﴾ أي الذي كنتم تدعونه، لأن الاستهزاء بالله والرسول والكتاب كفر مخرج من الملة، وقوله تعالى ﴿إن

---

(١) يروى أن أحد المنافقين قال: والله وددت لو أني قُدّمت فجُلدت مائة ولا ينزل فينا شيء يفضحنا فنزلت الآية: ﴿يحذر المنافقون..﴾ وهي خبر وإن قال بعضهم هي إنشاء بمعنى: ليحذر المنافقون.

(٢) معلوم أن القرآن ينزل على الرسول ﷺ وقوله: ﴿عليهم﴾ بمعنى المؤمنين لأنهم والرسول في جانب والمنافقون في آخر، فصحّ أن يقال: تنزل على المؤمنين، والرسول معهم، وهو المختص بالوحي.

(٣) وسميت أيضاً: المثيرة، والمبعثرة والحفارة لأنها أثارت كامن المنافقين وبعثرته وحفرت ما في قلوبهم وأخرجته.

(٤) ذكر الطبري أنّ قائل هذه المقالة: وديعة بن ثابت قال ابن عمر: رأيته معلقاً بحقب ناقة رسول الله ﷺ يماشيها والحجارة تنكبه وهو يقول: إنّما كنّا نخوض ونلعب والرسول ﷺ يقول: أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون.

(٥) ﴿لا تعتذروا﴾ نهاهم عن الاعتذار لأنه غير نافع لهم ولا مجدٍ واعتذر بمعنى: اعذر أي صار ذا عذر، والاعتذار محو اثر الموجدة أو هو القطع، أي: قطع ما في القلب من الموجدة، ومنه قيل: عدرة الغلام: وهو ما يقطع منه عند الختان.

نعف عن طائفة منكم﴾ لأنهم يتوبون كمخشي بن حمير،[1] ﴿نعذب طائفة﴾ أخرى لأنهم لا يتوبون وقوله تعالى ﴿بأنهم كانوا مجرمين﴾ علة للحكم بعذابهم وهو إجرامهم بالكفر والاستهزاء بالمؤمنين إذ من جملة ما قالوه: قولهم في الرسول ﷺ يظن هذا ـ يشيرون إلى النبي وهم سائرون ـ يفتح قصور الشام وحصونها" فأطلع الله نبيه عليهم فدعاهم فجاءوا واعتذروا بقولهم إنا كنا نخوض[2] أي في الحديث ونلعب تقصيراً للوقت، ودفعاً للملل عنا والسآمة فأنزل تعالى ﴿قل أبالله﴾ الآية.

هداية الآيـات

من هداية الآيات:

١ـ الكشف عن مدى ما كان يعيش عليه المنافقون من الحذر والخوف.

٢ـ كفر من استهزأ بالله أو آياته أو رسوله.

٣ـ لا يقبل اعتذار[3] من كفر بأي وجه وإنما التوبة أو السيف فيقتل كفراً.

٤ـ مصداق ما أخبر به تعالى من أنه سيعذب طائفة فقد هلك عشرة بداء الدبيلة «خراج يخرج من الظهر وينفذ ألمه إلى الصدر فيهلك صاحبه حتماً».

ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ

---

(١) هو مخشي بن حمير الأشجعي وقد تاب عند سماعه هذه الآية وحسن إسلامه.

(٢) الخوض: الدخول في الماء، ثم استعمل في كل دخول فيه تلويث وأذى.

(٣) اختلف العلماء في الهزل في سائر الأحكام كالبيع والنكاح والطلاق على ثلاثة أقوال لا يلزم مطلقاً، يلزم مطلقاً، التفرقة بين البيع وغيره، وهذا الراجح، لأنّ النكاح والطلاق والعتاق ورد فيها النص من السنة لحديث الترمذي وحسنه مع وصفه بالغرابة وبه العمل عند جماهير الصحابة والتابعين والفقهاء وهو: (ثلاث جدهن جد وهزلهن جد النكاح والطلاق والرجعة) وحديث الموطأ: (ثلاث ليس فيهن لعب: النكاح والطلاق والعتق).

فِيهَاۚ هِيَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾

شرح الكلمات :

المنافقون : أي الذين يظهرون للمؤمنين الإيمان بألسنتهم ويسترون الكفر في قلوبهم .

بعضهم من بعض[1] : أي متشابهون في اعتقادهم وقولهم وعملهم فأمرهم واحد .

بالمنكر : أي ما ينكره الشرع لضرره أو قبحه وهو الكفر بالله ورسوله .

عن المعروف : أي ما عرفه الشرع نافعاً فأمر به من الإيمان والعمل الصالح .

يقبضون أيديهم : أي يمسكونها عن الإنفاق في سبيل الله .

نسوا الله فنسيهم : أي تركوا الله فلم يؤمنوا به وبرسوله فتركهم وحرمهم من توفيقه وهدايته .

عذاب مقيم : أي دائم لا يزول ولا يبيد .

---

(١) ﴿بعضهم من بعض﴾ : أي : هم كالشيء الواحد في الخروج عن الدين، أو هم متشابهون في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف.

بخلاقهم : أي بنصيبهم وحظهم من الدنيا.
وخضتم : أي في الكذب والباطل.
والمؤتفكات : أي المنقلبات حيث صار عاليها سافلها وهي ثلاث مدن.[1]
بالبينات : الآيات الدالة على صدقهم في رسالاتهم إليهم.

معنى الآيات :

ما زال السياق في هتك استار المنافقين وبيان فضائحهم لعلهم يتوبون. قال تعالى ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض﴾ أي كأبعاض الشيء الواحد وذلك لأن أمرهم واحد لا يختلف بعضهم عن بعض في المعتقد والقول والعمل بيّن تعالى حالهم بقوله ﴿يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف﴾ وهذا دليل على انتكاسهم وفساد قلوبهم وعقولهم، إذ هذا عكس ما يأمر به العقلاء،والمراد من المنكر الذي يأمرون به هو الكفر والعصيان، والمعروف الذي ينهون عنه هو الإيمان بالله ورسوله وطاعتهما. وقوله تعالى ﴿ويقبضون أيديهم﴾ كناية عن الإمساك وعدم البذل في الإنفاق في سبيل الله.[2] وقوله ﴿نسوا الله﴾ فلم يؤمنوا به ولم يؤمنوا برسوله ولم يطيعوا الله ورسوله ﴿فنسيهم﴾ الله بأن تركهم محرومين من كل هداية ورحمة ولطف. وقوله ﴿إن المنافقين هم الفاسقون﴾ تقرير لمعنى ﴿نسوا الله فنسيهم﴾، إذ كفرهم بالله وبرسوله هو الذي حرمهم هداية الله تعالى ففسقوا سائر أنواع الفسق فكانوا هم الفاسقين الجديرين بهذا الوصف وهو الفسق والتوغل فيه. وقوله تعالى في الآية (٦٨) ﴿وعد[3] الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم﴾[4] أي كافيهم ﴿ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم﴾ أي دائم لا يزول ولا يبيد ولا يفنى فقد حملت هذه الآية أشد وعيد لأهل النفاق والكفر إذ توعدهم الرب تعالى بنار جهنم خالدين فيها وبالعذاب المقيم الذي لا يبارحهم ولا يتركهم لحظة أبد الأبد وذلك بعد أن لعنهم الله فأبعدهم وأسحقهم من كل رحمة وخير. وفي الآية الثالثة (٦٩) يأمر

---

(١) هي : سدوم، وعمورة، وأرمة، وكانت مدناً متاخمة بعضها قريب من بعض.

(٢) أي : وصفهم بالبخل والشح كما قال تعالى : ﴿أشحة على الخير﴾ كما أن امتناعهم عن الخروج إلى الجهاد يعتبر قبضا لأيديهم.

(٣) الأصل أن الوعد يكون في الخير والإيعاد يكون في الشر، وإطلاق الوعد على الوعيد كما هو هنا تهكم بهم.

(٤) ﴿هي حسبهم﴾ مبتدأ وخبر ومعناه : أنها كافية ووفاء لجزاء أعمالهم.

تعالى رسوله أن يقول للمنافقين المستهزئين بالله وآياته ورسوله: أنتم أيها المنافقون كأولئك الذين كانوا من قبلكم في الاغترار بالمال والولد والكفر بالله والتكذيب لرسله حتى نزل بهم عذاب الله ومضت فيهم سنته في إهلاكهم هذا ما تضمنته الآية الكريمة إذ قال تعالى ﴿كالذين من قبلكم[1] كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم﴾ أي بنصيبهم الذي كتب لهم في الدنيا ﴿فأستمتعتم بخلاقكم﴾ أي بما كتب لكم في هذه الحياة الدنيا ﴿كما استمتع الذين من قبلكم﴾ أي سواء بسواء ﴿وخضتم﴾ في الباطل والشر وبالكفر والتكذيب ﴿كالذي خاضوا[2]﴾ أي كخوضهم سواء بسواء أولئك الهالكون ﴿حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾ أي تلاشت وذهبت ولم ينتفعوا منها بشيء، ﴿وأولئك هم الخاسرون﴾. وبما أنكم أيها المنافقون تسيرون على منهجهم في الكفر والتكذيب والاغترار بالمال والولد فسوف يكون مصيركم كمصيرهم وهو الخسران المبين.

وقوله تعالى في الآية الرابعة (٧٠) ﴿ألم يأتهم[3] نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم[4] رسلهم بالبينات﴾ أي الآيات الدالة على توحيد الله وصدق رسوله وسلامة دعوتهم كما جاءكم أيها المنافقون رسولنا محمد ﷺ بالبينات فكذبتم كما كذب الذين من قبلكم فنزل بهم عذاب الله فهلك قوم نوح بالطوفان وعاد بالريح العاتية، وثمود بالصاعقة، وقوم إبراهيم[5] بسلب النعم وحلول النقم، وأصحاب مدين بالرجفة وعذاب الظلمة، والمؤتفكات[6] بالمطر والإئتفاك أي القلب بأن أصبح أعالي مدنهم الثلاث[7] أسافلها، وأسافلها أعاليها، وما ظلمهم الله تعالى بما أنزل عليهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، وأنتم أيها المنافقون إن لم تتوبوا إلى ربكم سيحل بكم ما حل بمن قبلكم أو أشد لأنكم لم تعتبروا بما سبق.

---

(١) الكاف: في محل نصب أي: وعدكم الله أيها المنافقون والمنافقات كما وعد الذين من قبلكم نار جهنم تخلدون فيها.

(٢) الكاف: في محل نصب نعت لمصدر محذوف أي: وخضتم خوضاً كالذي خاضوا أي: في الباطل والشر والفساد. والذي بمعنى الجمع، ويجوز أن يكون الذين محذوف النون على لغة هذيل قال شاعرهم:

وإن الذي حانت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد

(٣) الاستفهام للتقرير، والتحذير بمعنى: ألم يسمعوا بإهلاكنا الكفار من قبلهم؟

(٤) أي بدلائل الحق والصدق، والجملة تعليلية.

(٥) هم نمرود بن كنعان وقومه.

(٦) قوم لوط عليه السلام.

(٧) تقدمت أسماء هذه المدن قريبا.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

١ـ إن المنافقين لما كان مرضهم واحد وهو الكفر الباطني كان سلوكهم متشابها.

٢ـ الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف علامة النفاق وظاهرة الكفر وانتكاس الفطرة.

٣ـ الاغترار بالمال والولد من عوامل عدم قبول الحق والإذعان له والتسليم به.

٤ـ تشابه حال البشر واتباع بعضهم لبعض في الباطل والفساد والشر.

٥ـ حبوط الأعمال بالباطل وهلاك أهلها أمر مقضى به لا يتخلف.

٦ـ وجوب الاعتبار بأحوال السابقين والاتعاظ بما لاقاه أهل الكفر منهم من عذاب.

وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

شرح الكلمات :

والمؤمنون : أي الصادقون في إيمانهم بالله ورسوله ووعد الله ووعيده.

أولياء بعض : أي يتولى بعضهم بعضاً في النّصرة والحماية والمحبة والتأييد.

ويقيمون الصلاة : أي يؤدونها في خشوع وافية الشروط والأركان والسنن والآداب.

ويؤتون الزكاة : أي يخرجون زكاة أموالهم الصامتة كالدراهم والدنانير والمعشرات والناطقة كالأنعام: الإبل والبقر والغنم.

في جنات عـدن : أي إقامة دائمة لا يخرجون منها ولا يتحولون[1] عنها .

ورضوان من الله أكبر : أي رضوان الله الذي يحله عليهم أكبر من كل نعيم في الجنة .

معنى الآيتين :

بمناسبـة ذكـر المنافقين وبيان سلوكهم ونهاية أمرهم ذكر تعالى المؤمنين وسلوكهم الحسن ومصيرهم السعيد فقـال ﴿والمؤمنـون والمؤمنات﴾ أي المؤمنون بالله ورسوله ووعده ووعيده والمؤمنات بذلك ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ أي يوالي بعضهم بعضاً محبة ونصرة[2] وتعاوناً وتأييداً ﴿يأمرون بالمعروف﴾ وهو ما عرفه الشرع حقاً وخيراً من الإيمان وصالح الأعمال ، ﴿وينهون عن المنكـر﴾ وهـو ما عرفـه الشـرع باطـلاً ضـاراً فاسداً من الشرك وسائر الجرائم فالمؤمنون والمؤمنـات على عكس المنـافقين والمنافقات في هذا الأمر وقوله تعالى ﴿ويقيمون[3] الصلاة ويؤتون الزكاة﴾ والمنافقون لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى فهم مضيعون لها غير مقيمن لها ، ويقبضـون أيديهم فلا ينفقـون ، والمؤمنـون يطيعـون الله ورسوله[4] ، والمنافقون يعصون الله ورسوله ، المؤمنون سيرحمهم الله[5] ، والمنافقون سيعذبهم الله ، ﴿إن الله عزيز﴾ غالب سينجز وعـده ووعيده ﴿حكيم﴾ يضـع كل شيء في موضعـه الـلائق به فلا يعـذب المؤمنين وينعّم المنافقين بل ينعّم المؤمنين ويعذب المنافقين .

وقوله تعالى في الآية الثانية (٧٢) ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار﴾ أي من خلال قصورها وأشجارها ﴿خالدين فيها ومساكن﴾ أي قصوراً طيبة في غاية النظافة وطيب الرائحة ﴿في جنات عدن[6]﴾ أي إقامة،وقوله ﴿ورضوان من الله﴾

---

(١) قال تعالى من سورة الكهف: ﴿لايبغون عنها حولا﴾ أي: تحولا لأنّ نعيمها لا يُمل ولا تتشوق النفس لغيره أبدا.

(٢) شاهده من السنة قوله ﷺ : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) وشبّك بين أصابعه وقوله ﷺ في الصحيح : (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر).

(٣) يشمل اللفظ: الصلوات الخمس والنوافل كما شمل الزكوات المفروضة والصدقات إذ المدح يحصل بهما معاً فرضا ونفلا.

(٤) أي : يؤدون الفرائض والسنن فعلا ويجتنبون المنهيات والمكروهات تركاً.

(٥) السين في ﴿سيرحمهم﴾ للتأكيد وتحمل معنى الخوف والرجاء وهما جناحا المؤمنين لا يطيرون في سماء الكمالات إلا بهما.

(٦) شاهدهُ في الصحيح قوله ﷺ : (جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلاّ رداء الكبر على وجهه في جنة عدن) وقوله أيضاً في الصحيح : (إنّ للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفةطولها ستون ميلا في السماء، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهن لا يرى بعضهم بعضا).

أي يحله عليهم أكبر من الجنات والقصور وسائر أنواع النعيم. وقوله ﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾ ذلك المذكور من الجنة ونعيمها ورضوان الله فيها هو الفوز العظيم. والفوز هو السلامة من المرهوب والظفر بالمرغوب. هذا الوعد الإلهي الصادق للمؤمنين والمؤمنات يقابله وعيد الله تعالى للمنافقين والكفار في الآيات السابقة، ونصه ﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم﴾.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

١ـ بيان صفات المؤمنين والمؤمنات والتي هي مظاهر إيمانهم وأدلته.

٢ـ أهمية صفات أهل الإيمان وهي الولاء لبعضهم بعضاً، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إقامة الصلاة، إيتاء الزكاة، طاعة الله ورسوله.

٣ـ بيان جزاء أهل الإيمان في الدار الآخرة وهو النعيم المقيم في دار الإسلام.

٤ـ أفضلية رضا[1] الله تعالى على سائر النعيم.

٥ـ بيان معنى الفوز وهو النجاة من النار، ودخول الجنة.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ

(١) أخرج الشيخان البخاري ومسلم، ومالك في الموطأ عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: (إنّ الله عزّ وجلّ يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير بين يديك فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون يارب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا).

ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

شـرح الكلمات :

جاهد الكفـار : ابذل غاية جهدك في قتال الكفار والمنافقين.

واغلظ عليـهم : أي في القول والفعل أي شدد عليهم ولا تلن لهم.

كلمة الكفــر : أي كلمة يكفر بها من قالها وهي قول الجلاس بن سويد: إن كان ما جاء به محمد حقاً لنحن شرّ من الحمير.

وهموا بما لم ينالوا : أي هموا بقتل النبي ﷺ في مؤامرة دنيئة[1] وهم عائدون من تبوك.

وما نقموا إلا أن أغناهم : أي ما أنكروا أو كرهوا من الإسلام ورسوله إلا أن أغناهم الله بعد فقر أعلى مثل هذا يهمون بقتل رسول الله؟

معنى الآيتين :

يأمـر تعـالى رسـوله محمداً ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين فيقول﴿يا أيها النبي[2] جاهد الكفار والمنافقين﴾ وجهاد الكفار يكون بالسلاح وجهاد المنافقين يكون باللسان،[3] وقوله تعالى ﴿واغلظ عليهم[4]﴾ أي شدد عملك وقولك،فلا هوادة مع من كفر بالله ورسوله، ومع من نافق الرسول والمؤمنين فأظهر الإيمان وأسر الكفر وقوله تعالى ﴿ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾ أي جهنم يريد ابذل ما في وسعك في جهادهم قتلاً وتأديباً هذا لهم في الدنيا، وفي الآخرة مأواهم جهنم وبئس المصير، وقوله تعالى في الآية الثانية (٧٤) ﴿يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا﴾ هذا الكلام علّة للأمر بجهادهم والإغلاظ عليهم لقول الجلاس بن سويد المنافق: لئن كان ما جاء به محمـد حقاً لنحن شر من الحمير سمعه منه أحد المؤمنين فبلغه رسول الله ﷺ فجاء

---

(١) اقرأ نصها في التفسير فإنها واضحة ومختصرة.

(٢) يدخل في هذا الخطاب أمته ﷺ.

(٣) بأن يقول لهم الكلمة الغليظة الشديدة ويكفهر في وجوههم أي: يعبس ولا يبسط وجهه فيهم.

(٤) هذه الآية نسخت كل شيء من العفو، والصفح الذين كان الرسول ﷺ يؤمر بهما إزاء المشركين والمنافقين.

الجلاس يعتذر ويحلف بالله ما قال الذي قال فأكذبه الله تعالى في قوله في هذه الآية ﴿يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم﴾ والسياق دال على تكرر مثل هذا القول الخبيث وهو كذلك. وقوله تعالى ﴿وهموا بما لم ينالوا﴾[1] يعني المنافقين الذين تآمروا على قتل النبي ﷺ عند عودته من تبوك في عقبة في الطريق إلا أن الله فضحهم وخيّب مسعاهم ونجى رسوله منهم حيث بعث عمار بن ياسر يضرب وجوه الرواحل لما غشوه فردوا وتفرقوا بعد أن عزموا على أن يزاحموا رسول الله وهو على ناقته بنوقهم حتى يسقط منها فيهلك أهلكهم الله. وقوله تعالى ﴿وما نقموا﴾[2] أي وما كرهوا من رسول الله ولا من الإسلام شيئاً إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله وهل الغنى بعد الفقر مما ينقم منه، والجواب لا ولكنه الكفر والنفاق يفسد الذوق والفطرة والعقل أيضاً.

ومع هذا الذي قاموا به من الكفر والشر والفساد يفتح الرب الرحيم تبارك وتعالى باب التوبة في وجوههم ويقول ﴿فإن يتوبوا﴾[3] من هذا الكفر والنفاق والشر والفساد يك[4] ذلك ﴿خيراً لهم﴾ حالاً ومآلاً أي في الدنيا والآخرة، ﴿وإن يتولوا﴾ عن هذا العرض ويرفضوه فيصرون على الكفر والنفاق ﴿يعذبهم الله عذاباً أليماً﴾ أي موجعاً في الدنيا بالقتل والخزي، وفي الآخرة بعذاب النار، ﴿ومالهم في الأرض من ولي﴾[5] يتولاهم ولا ناصر ينصرهم، أي وليس لهم في الدنيا من ولي يدفع عنهم ما أراد الله أن ينزله بهم من الخزي والعذاب وما لهم من ناصر ينصرهم بعد أن يخذلهم الله سبحانه وتعالى.

---

(١) أخرج مسلم عن حذيفة: (أن اثني عشر رجلا سمّاهم رسول الله ﷺ فعدهم حذيفة واحدا واحدا قال قلت: يا رسول الله ألا تبعث إليهم فتقتلهم؟ فقال: أكره أن يقول العرب لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم، بل يكفيهم الله بالدّبلة) وهي خراج يظهر في الظهر وينصب على الصدر يقتل صاحبه فورا.

(٢) أي: ليس بنقمون شيئا إلا أنهم كانوا فقراء فأغناهم الله بما كان الرسول ﷺ يعطيهم من الغنائم، قيل لأحدهم: هل تجد في القرآن نظير قولهم اتق شر من أحسنت إليه؟ قال: نعم هو قوله تعالى: ﴿وما نقموا إلاّ أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾.

(٣) هذه الجملة متفرعة عن الكلام السابق وهي من باب ذكر الوعد بعد الوعيد والترغيب بعد الترهيب، وهو أسلوب القرآن الكريم.

(٤) حذفت نون ﴿يك﴾ تخفيفا إذ الأصل يكن.

(٥) هذه الجملة معطوفة على جملة: ﴿يعذبهم الله﴾ وهي وإن كانت اسمية لا يمتنع أن تكون جواباً ثانياً معطوفا على جملة الجزاء، لأنه يغتفر في التابع مالا يغتفر في المتبوع، فالجزاء جزاءان، الأول: تعذيبهم والثاني: انعدام الولي والنصير لهم في الأرض كلها.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين :

١ـ بيان آية السيف[1] وهي ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين﴾ .

٢ـ تقرير مبدأ الردة وهي أن يقول المسلم كلمة الكفر فيكفر بها وذلك كالطعن في الإسلام أو سب الله أو رسوله ﷺ أو التكذيب بما أمر الله تعالى بالإيمان به والتصديق بضده أي بما أمر الله بتكذيبه .

٤ـ تقرير مبدأ التوبة من كل الذنوب ، وأن من تاب تقبل توبته .

٤ـ الوعيد الشديد لمن يصر على الكفر ويموت عليه .

۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾

شـرح الكلمـات :

ومنهـم : أي من المنافقين .

لئن آتانا من فضله : أي مـالاً كثيـراً .

بخلـوا بـه : أي منعوه فلم يؤدوا حقه من زكاة وغيرها .

فأعقبهم نفاقـاً : أي فأورثهم البخل نفاقاً ملازماً لقلوبهم لا يفارقها إلى يوم يلقون

---

(١) يروى عن علي رضي الله عنه أنه قال: سيوف الله أربعة: واحد على المشركين قال تعالى : ﴿فاقتلوا المشركين . .﴾ وثان على الكافرين قال تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر . .﴾ وثالث على المنافقين: قال تعالى : ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين . .﴾ ورابع على البغاة. قال تعالى : ﴿فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾ .

الله تعالى .

بما أخلفوا الله : أي بسبب إخلافهم ما وعدوا الله تعالى به .

سرهم ونجـواهـم : أي ما يسرونه في نفوسهم ويخفونه ، وما يتناجون به فيما بينهم .

عـلام الغيـوب : يعلم كل غيب في الأرض أو في السماء .

معنى الآيـات :

ما زال السياق في المنافقين وهم أصناف وهذا صنف[1] آخر منهم قد عاهد الله تعالى لئن أغناهم من فضله وأصبحوا ذوي ثروة ومال كثير ليصدقن منه ولينفقنّه في طريق البر والخير، فلما أعطاهم الله ما سألوا وكثر مالهم شحوا به وبخلوا، وتولوا عما تعهدوا به وما كانوا عليه من تقوى وصلاح ، وهم معرضون . فأورثهم هذا البخل وخلف الوعد والكذب ﴿نفاقاً في قلوبهم[2]﴾ لا يفارقهم حتى يلقوا ربهم . هذا ما دل عليه قوله تعالى ﴿ومنهم من[3] عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم[4] من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾ . أما الآية الأخيرة (٧٨) وهي قوله تعالى ﴿ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجـواهم وأن الله علام الغيوب؟؟﴾ فإنها تضمنت توبيخ الله تعالى للمنافقين الذين عاهدوا الله وأخلفوه بموقفهم الشائن كأنهم لا يعلمون أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأنه تعالى علام الغيوب ، وإلا كيف يعدونه ويخلفون له أم يحسبون أن الله لا يسمع سرهم ونجواهم فموقفهم هذا موقف مخز لهم شائن ، وويل لهم حيث لازمهم ثمرته وهو النفاق حتى الموت وبهذا أغلق باب التوبة في وجوههم وهلكوا مع الهالكين .

---

(١) قال قتادة : هذا رجل من الأنصار قال : لئن رزقني الله شيئا لأدين فيه حقه ولأتصدقن فلما آتاه الله ذلك فعل ما قُصّ عليكم فاحذروا الكذب فإنه يؤدي إلى الفجور.

(٢) ﴿نفاقا﴾ نكرة أي : نفاقاً ما من نوع من أنواع النفاق وليس هو نفاق الكفر وإنّما هو نفاق العمل .

(٣) الآية صريحة ودلالتها واضحة في أنّ أحد أفراد المؤمنين سأل الله المال سواء بواسطة الرسول ﷺ كأن قال له ادع الله لي ، أو سأل بنفسه وقطع عهداً لربه بما ذكر في الآية، ولما أخلف ما عاهد الله عليه أصيب بمرض النفاق في قلبه ـ والعياذ بالله تعالى ـ وهل هو ثعلبة بن حاطب أو غيره أما ثعلبة فقد شهد بدراً ، وأهل بدر ذُكر لهم وعد عظيم ، فلا يصح أن يكون أحدهم وقع في هذه الفتنة وإن كان غيره فهو حق ، وجائز أن يكون هذا الغير اسمه ثعلبة فتشابه الاسم بالاسم فظُن أنه البدري وليس هو والله أعلم . هذا والله إني لخائف من هذه الآية أن تنطبق عليّ فاللهم عفوك وغفرانك لي .

(٤) صيغة الجمع تدل على أن من عاهد الله لم يكن فردا واحداً بل كان جماعة ولذا قال الضحاك : إن الآية نزلت في رجال من المنافقين : نبتل بن الحارث والجد بن قيس ومعتب بن قشير إلّا أن قوله تعالى : ﴿فأعقبهم نفاقاً﴾ يتنافى مع كونهم منافقين، إلّا أن يقال : زادهم نفاقاً خُلفهم هذا على نفاقهم الأول . والله أعلم .

هداية الآيـات

من هداية الآيات :

١ـ وجوب الوفاء بالعهود وخاصة عهود[1] الله تعالى .

٢ـ ذم البخل وأهله .

٣ـ تقرير مبدأ أن السيئة يتولد عنها سيئة .

٤ـ جواز تقريع وتأنيب أهل الباطل .

٥ـ وجوب مراقبة الله تعالى إذ لو راقب هؤلاء المنافقون[2] الله تعالى لما خرجوا عن طاعته .

ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾

شـرح الكلـمات :

يلمـزون : أي يعيبون ويطعنون .

---

(١) اختلف في نية الطلاق أو الصدقة بدون أن يلفظ هل يلزمه ما نواه بقلبه أو لا يلزمه، الراجح : أنه لا يلزمه ما لم يتلفظ به والدليل في قوله ﷺ (إنّ الله تجاوز لأمتى عمّا حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به) رواه الترمذي وقال فيه حسن صحيح ، والشاهد في قوله: (أو تتكلم به) والعمل بهذا عند أهل العلم .

(٢) جاء في الصحيح قوله ﷺ (آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان) وفي حديث آخر: (أربع من كنّ فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا اؤتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر) واختلف العلماء في تأويل هذين الحديثين، وقسموا النفاق إلى اعتقادي وعملي ، فالاعتقادي : ماكان صاحبه كافرا بالله ورسوله مكذبا لهما، والعملي : ما كان صاحبه مؤمنا مصدقا ولكن يأتي هذه المحظورات جهلا وفسقا . وهذا صحيح . ولكن لا يتأتى لعبد يؤمن بالله ورسوله أن يتعمد الكذب على المسلمين وإخلاف الوعد لهم ، والغدر بهم ، وخيانتهم في أماناتهم والفجور في التخاصم معهم ، ومن هنا كان المطلوب اجراء الخبر على ظاهره ما دام العبد يتعمد هذه المحظورات نكاية بالمسلمين وبغضا لهم وعدم اعتراف بحقوقهم وظلما واعتداء عليهم ، إذ مثل هذا لا يكون معه إيمان بالله ورسوله ﷺ .

المطوّعين : أي المتصدقين بأموالهم زيادة على الفريضة.

إلا جهدهم : إلا طاقتهم وما يقدرون عليه فيأتون به.

فيسخرون منهم : أي يستهزئون بهم احتقاراً لهم.

استغفر لهم : أي اطلب لهم المغفرة أو لا تطلب.

لا يهدي القوم الفاسقين : أي إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم وذلك لتوغلهم في العصيان.

معنى الآيتين:

ما زال السياق في التنديد بالمنافقين وكشف عوارهم فقد أخبر تعالى أن ﴿الذين يلمزون[1] المطوعين[2] من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم[3] فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم﴾. أخبر تعالى أنه سخر منهم جزاء سخريتهم بالمتصدقين وتوعدهم بالعذاب الأليم. وكيفية لمزهم المتطوعين أن النبي ﷺ دعا إلى الصدقة فإذا جاء الرجل بمال كثير لمزوه وقالوا مراء، وإذا جاء الرجل بالقليل لمزوه وقالوا: الله غني عن صاعك هذا فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية ففضحهم وسخر منهم وتوعدهم بأليم العذاب وأخبر نبيه أن استغفاره لهم وعدمه سواء فقال ﴿استغفر لهم[4] أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ وبين علة ذلك بقوله ﴿ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله﴾، وهذه العلة كافية في عدم المغفرة لهم لأنها الكفر والكافر مخلد في النار. وأخبر تعالى أنه حرمهم الهداية فلا يتوبوا فقال ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ لأن الفسق قد أصبح وصفاً لازماً لهم فلذا هم لا يتوبون، وبذلك حرموا هداية الله تعالى.

---

(١) أخرج مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: أمرنا بالصدقة فكنا نحامل على ظهورنا فتصدق أبو عقيل بنصف صاع، قال: وجاء انسان بشيء أكبر منه فقال المنافقون إنّ الله لغني عن صدقة هؤلاء، وما فعل هذا الآخر إلاّ رياء فنزلت: ﴿الذين يلمزون المطوّعين. .﴾ الآية.

(٢) أصل المطوّعين: المتطوعين ادغمت التاء في الطاء لِقرب مخرجيهما وهم: الذين يفعلون الشيء تبرعا من غير أن يجب عليهم.

(٣) الجهد: شيء قليل يعيش به المقل والجهد والجهد بالفتح أيضا: الطاقة والسخرية: الاستهزاء، وعاملهم الله تعالى بالمثل فسخر منهم وهم لا يشعرون.

(٤) بيد أنه لما نزلت الآيات الفاضحة للمنافقين جاء بعضهم يعتذرون ويطلبون من الرسول ﷺ أن يستغفر لهم فاستغفر لهم رحمة بهم فأعلمه ربّه تعالى أنّ استغفاره لهؤلاء المنافقين مهما بلغ من الكثرة لا ينفعهم وذلك لكفرهم ونفاقهم وفسقهم.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين :

١ـ حرمة لمز المؤمن والطعن فيه .

٢ـ حرمة السخرية بالمؤمن .

٣ـ غيرة الله على أوليائه حيث سخر الله ممن سخر من المطوعين .

٤ـ من مات على الكفر لا ينفعه الاستغفار له ، بل ولا يجوز الاستغفار له .

٥ـ التوغل في الفسق أو الكفر أو الظلم يحرم صاحبه الهداية .

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

شـرح الكلمـات :

فرح المخلفون : أي سرّ الذين تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله ﷺ .

وقالوا: لا تنفروا في الحر : أي قال المنافقون لبعضهم بعضاً لا تخرجوا للغزو في الحر.

لو كانوا يفقهون : أي لو كانوا يفقهون أسرار الأمور وعواقبها ونتائجها لما قالوا : لا تنفروا في الحر ولكنهم لا يفقهون .

فليضحكوا قليلاً وليبكوا : أي في الدنيا ، وليبكوا كثيراً في الدار الآخرة .

فإن رجعك الله إلى
طائفة منهم : أي من المنافقين.
فاقعدوا مع الخالفين : أي المتخلفين عن تبوك من النساء والأطفال وأصحاب الأعذار.

معنى الآيات :

ما زال السياق في الحديث عن المنافقين فقال تعالى مخبراً عنهم ﴿فرح المخلفون﴾[1] أي سر المتخلفون ﴿بمقعدهم خلاف[2] رسول الله﴾ أي بقعودهم بعد رسول الله ﷺ في المدينة ﴿وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾ في سبيله، وكرههم هذا للجهاد هو ثمرة نفاقهم وكفرهم وقولهم ﴿لا تنفروا في الحر﴾ لأن غزوة تبوك كانت في شدة الحر، قالوا هذا لبعضهم بعضاً وهنا أمر الله تعالى رسوله أن يرد عليهم قولهم هذا فقال ﴿قل نار جهنم أشد حراً﴾ فلماذ لا يتّقونها بالخروج في سبيل الله كما يتقون الحر بعدم الخروج، وقوله تعالى ﴿لو كانوا يفقهون﴾ أي لما تخلفوا عن الجهاد لأن نار جهنم أشد حراً، ولكنهم لا يفقهون وقوله تعالى ﴿فليضحكوا قليلاً﴾[3] أي في هذه الحياة الدنيا بما يحصل لهم من المسرات ﴿وليبكوا كثيراً﴾ أي يوم القيامة لما ينالهم من الحرمان والعذاب، وذلك كان ﴿جزاء بما كانوا يكسبون﴾ من الشر والفساد، وقوله تعالى لرسوله ﷺ ﴿فإن رجعك الله إلى طائفة منهم﴾[4] أي فإن ردك الله سالماً من تبوك إلى المدينة إلى طائفة من المنافقين ﴿فاستأذنوك للخروج﴾ معك لغزو وجهاد ﴿فقل لن تخرجوا معي أبداً، ولن تقاتلوا معي عدواً﴾ وعلة ذلك ﴿أنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين﴾[5] أي من النساء

---

(١) ﴿المخلفون﴾ هم المتركون في المدينة تركهم رسول الله ﷺ والمؤمنون لأنهم غير أهل لصحبة رسول الله ﷺ فلذا كره الله انبعاثهم فثبطهم أما هم فإنهم فرحوا بتخلفهم عن رسول الله ﷺ لنفاقهم وفسقهم.

(٢) ﴿خلاف﴾ لغة في خلف، واختير لفظ خلاف إشارة إلى أنّ المنافقين يحبّون مخالفة رسول الله ﷺ والمؤمنين، وقعودهم وإن كان بإذن فإنه مخالف لإرادة رسول الله ﷺ إذ الرسول ﷺ أمر بالنفير العام وجاءوا هم يستأذنون في القعود.

(٣) ﴿فليضحكوا﴾ أمر، ومعناه التهديد أي: فليضحكوا في الدنيا قليلا وليبكوا في الآخرة كثيرا، أو هو أمر بمعنى الخبر وهو صحيح إذ هذا هو حالهم ومنتهى أمرهم.

(٤) قوله: ﴿إلى طائفة﴾ دليل على أن من المتخلفين ما كانوا منافقين ككعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع العامري.

(٥) ﴿الخالفين﴾ جمع خالف، كأنهم خلفوا الخارجين في ديارهم، واختيار لفظ الخالفين يحمل سبًا لهم وعيباً، إذ الخالفون النساء، وخلف الشيء إذا فسد، ومنه خلوف فم الصائم، ومنه خلف اللبن: إذا فسد بطول المكث في الإناء، وفي هذا دليل على أن استصحاب المخذل الفاسد في الغزوات لا يليق.

والأطفال فإن هذا يزيد في همهم ويعظم حسرتهم جزاء تخلفهم عن رسول الله وكراهيتهم الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله .

هداية الآيـات

من هداية الآيـات :

١ـ من علامات النفاق الفرح بترك طاعة الله ورسوله .

٢ـ من علامات النفاق كراهية طاعة الله ورسوله .

٣ـ كراهية الضحك والإكثار منه.[1]

٤ـ تعمد ترك الطاعة قد يسبب الحرمان منها .

وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

شـرح الكلـمات :

ولا تصل على أحد : أي صلاة الجنازة .

ولا تقم على قبره : أي لا تتول دفنه والدعاء له كما تفعل مع المؤمنين .

وماتوا وهم فاسقون : أي خارجون عن طاعة الله ورسوله .

وتزهق أنفسهم : أي تخرج أرواحهم بالموت وهم كافرون .

معنى الآيتين :

ما زال السياق في شأن المنافقين المتخلفين عن غزوة تبوك ، وإن كانت هذه الآية

---

(١) صح عنه ﷺ أنه قال : (والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولخرجتم إلى الصُعُدات تجأرون إلى الله تعالى) وورد أن كثرة الضحك تميت القلب وكان النبي ﷺ جل ضحكه الابتسام .

نزلت في[1] شأن عبـدالله بن أبي بن سلول كبير المنافقين وذلك أنه لما مات طلب ولده الحباب الذي سماه رسول الله ﷺ عبدالله وقال له الحباب اسم الشيطان وسماه عبدالله جاءه فقال يا رسول الله إن أبي قد مات فأعطني قميصك[2] أكفنه فيه «رجاء بركته» وصل عليه واستغفر له يا رسول الله فأعطاه رسول الله ﷺ القميص وقال له إذا فرغتم فآذنوني فلما أراد أن يصلي عليه جذبه عمر وقال له: أليس قد نهاك الله أن تصلي على المنافقين فقال بل خيرني فقال استغفر لهم أو لا تستغفر لهم. فصلى عليه فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ولا تصل على أحد منهم[3] مات أبداً، ولا تقم على قبره﴾ أي لا تتول دفنه والدعاء له بالتثبيت عند المسـألـة. وعلل تعالى لهذا الحكم بقوله ﴿إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون﴾،وقوله ﴿ولا تعجبك أموالهم وأولادهم﴾ أي لا تصل[4] على أحد منهم مات يا رسول الله ﴿ولا تعجبك أموالهم وأولادهم﴾ فتصلي عليهم.إني إنما أعطيتهم ذلك لا كرامة لهم وإنما لأعذبهم بها في الدنيا بالغموم والهموم ﴿وتزهق أنفسهم﴾ أي ويموتوا ﴿وهم كافرون﴾ فسينقلون إلى عذاب أبدي لا يخرجون منه، وذلك جزاء من كفر بالله ورسوله.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

١- حرمة الصلاة على الكافر مطلقاً.

٢- حرمة غسل الكافر والقيام على دفنه والدعاء له.

---

(١) روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف فلم يمكث إلا يسيرا حتى نزلت الأيتان من براءة: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبدا﴾ وما في التفسير من خبر ابن أبيّ رواه مسلم.

(٢) فإن قيل: كيف يعطي الرسول ﷺ قميصه ليكفن فيه رئيس المنافقين وكيف صلى عليه واستغفر له وهو يعلم أنّه منافق؟ والجواب: أما اعطاؤه ثوبه ليكفن فيه فقد سبق أن أعطى عبدالله بن أبي ثوبا للعباس عم الرسول ﷺ فحفظ له هذه اليد فأعطاه ثوبه وأما الصلاة عليه فقد كانت قبل نهي الله تعالى عنها، وأما الاستغفار فقد خير فيه بقوله ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾ فرأى ﷺ في استغفاره استئلافا للقلوب ففعل.

(٣) في الآية دليل على فرضية الصلاة على أموات المسلمين، ولا خلاف في هذا بين أهل العلم، وفي الآية إحدى موافقات عمر رضي الله عنه إذ أنزل الله تعالى هذا الحكم وهو ترك الصلاة على المنافقين بعد أن قال عمر: أليس قد نهاك الله أن تصلي على المنافقين، فالصلاة هنا هي الدعاء والاستغفار فلما صلى عليه نزلت الآية ﴿ولا تصل على أحد ..﴾ الخ فترك الصلاة على المنافقين.

(٤) صلاة الجنازة هي: أن يكبر ثم يقرأ الفاتحة ثم يكبر ويصلي على النبي ﷺ ثم يكبر ويدعو للميت، ثم يكبر الرابعة ويسلم لفعل الرسول ﷺ هذا وقوله: (إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء) رواه أبو داود، ويستحب أن يقف الإمام عند رأس الرجل، وعجيزة المرأة، لورود الحديث بذلك في مسلم وأبي داود.

٣ـ كراهة الصلاة على أهل الفسق دون الكفر.

٤ـ حرمة الإعجاب بأحوال الكافرين المادية.

وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾

شرح الكلمات:

استأذنك : أي طلبوا إذنك لهم بالتخلف.

أولوا الطول منهم : أي أولو الثروة والغنى.

ذرنا نكن مع القاعدين : أي اتركنا مع المتخلفين من العجزة والمرضى والأطفال والنساء.

مع الخوالف : أي مع النساء جمع خالفة المرأة تخلف الرجل في البيت إذا غاب.

طبع على قلوبهم : أي توالت ذنوبهم على قلوبهم فأصبحت طابعاً عليها فحجبتها المعرفة.

لهم الخيرات : أي في الدنيا بالنصر والغنيمة. وفي الآخرة بالجنة والكرامة فيها.

وأولئك هم المفلحون : أي الفائزون بالسلامة من المخوف والظفر بالمحبوب.

المـعذرون : أي المعتذرون.

وقعد الذين كذبوا الله : أي ولم يأت الى طلب الإذن بالقعود عن الجهاد منافقوا الأعراب.

معنى الآيـات :

ما زال السياق في كشف عورات المنافقين وبيان أحوالهم فقال تعالى ﴿وإذا أنزلت سورة﴾[1] أي قطعة من القرآن آية أو آيات ﴿أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله﴾[2] أي تأمر بالإيمان بالله والجهاد مع رسوله ﴿استأذنك أولوا الطول منهم﴾[3] أي من المنافقين ﴿وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين﴾ أي المتخلفين عن الجهاد للعجز كالمرضى والنساء والأطفال قال تعالى: في عيبهم وتأنيبهم ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾ أي مع النساء وذلك لجبنهم وهزيمتهم النفسية وقوله تعالى ﴿وطبع على قلوبهم﴾ أي طبع الله على قلوبهم بآثار ذنوبهم التي رانت على قلوبهم فلذا هم لا يفقهون معنى الكلام وإلا لما رضوا بوصمة العار وهي أن يكونوا في البيوت مع النساء هذه حال المنافقين وتلك فضائحهم إذا أنزلت سورة تأمر بالإيمان والجهاد يأتون في غير حياء ولا كرامة يستأذنون في البقاء مع النساء ﴿لكن[4] الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾ ولم يستأذنوا ففازوا بكرامة الدنيا

---

(١) السورة. طائفة من آيات القرآن لها مبدأ ومختم، والمراد بالسورة هنا: هذه السورة (التوبة) أو بعض آياتها الآمرة بالجهاد والإيمان.

(٢) ﴿أن آمنوا﴾ أن: تفسيرية فسرت مضمون السورة وهو الإيمان والجهاد.

(٣) أي: في القعود والتخلف عن الجهاد وهم أصحاب القدرة على الجهاد لصحة أجسامهم وكثرة أموالهم أما العجزة فإنهم غير مأمورين بالجهاد، والطول معناه: الغنى والقدرة المالية.

(٤) قوله: ﴿لكن﴾ الخ استدراك بيّن فيه تعالى حال الرسول ﷺ والمؤمنين وأنها أكمل الأحوال بعد ذكر حال المنافقين وما هم عليه من صفات النقص إذ أخبر أنهم لجبنهم يطلبون القعود عن الجهاد وأنهم لما ران على قلوبهم من أوضار الكفر والفسق لا يفقهون الكلام ولا يعرفون ما يضرهم ولا ما ينفعهم بخلاف الرسول والمؤمنين فقد ذكر صفاتهم الكمالية، وهي الجهاد بالمال والنفس وما فازوا به من عظيم الخيرات، وما آلوا إليه من الفلاح وهو النجاة من المرهوب والظفر بالمحبوب.

والآخـرة قال تعالى ﴿وأولئك لهم الخيرات﴾[1] أي في الدنيا بالانتصارات والغنائم وفي الآخرة بالجنة ونعيمها ورضوان الله فيها. وقال ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أي الفائزون بالسلامة من كل مرهوب وبالظفر بكل مرغوب وفسر تعالى تلك الخيرات وذلك الفلاح بقوله في الآية (٨٩) فقال ﴿أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ وأخبر عما أعد لهم من ذلك النعيم المقيم بأنه الفوز فقال ﴿ذلك الفوز العظيم﴾. هذا ما دلت عليه الآيات الأربع أما الآية الخامسة (٩٠) فقد تضمنت إخبار الله تعالى عن منافقي الأعراب أي البادية، فقال تعالى ﴿وجاء المعذرون﴾[2] أي المعتذرون ادغمت التاء في الذال فصارت المعذرون من الأعراب أي من سكان البادية كأسد وغطفان ورهط عامر بن الطفيل جاءوا يطلبون الإذن من رسول الله ﷺ بالتخلف بدعوى الجهد والمخمصة، وقد يكونون معذورين حقاً وقد لا يكونون كذلك. وقوله ﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾ في دعوى الإيمان بالله ورسوله وما هم بمؤمنين بل هم كافرون منافقون، فلذا قال تعالى فيهم ﴿سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾ في الدنيا وفي الآخرة، إن ماتوا على كفرهم.

هداية الآيـات

من هداية الآيات :

١ـ القرآن هو مصدر التشريع الإلهي الأول والسنة الثاني.

٢ـ مشروعية الاستئذان للحاجة الملحة.

٣ـ حرمة الاستئذان للتخلف عن الجهاد مع القدرة عليه.

٤ـ حرمة التخلف عن الجهاد بدون إذن من الإمام.

٥ـ فضل الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله.

٦ـ بيان عظم الأجر وعظيم الجزاء لأهل الإيمان والجهاد.

---

(١) الخيرات: جمع خير على غير قياس كسرادقات، وحمامات جمع سرادق وحمام.

(٢) ﴿المعذرون﴾ هذا اللفظ صالح لأن يكون المراد به المعتذرون لعلل قامت بهم وصالح لأن يكون المراد به المعذرون وهم الذين لا عذر لهم ويعتذرون بغير حق موجب للعذر يقال: عذر فلان: إذا قصّر في الواجب واعتذر بدون عذر قام به. وهذا من بلاغة القرآن، اللفظ الواحد منه يحتمل وجهين وكلاهما حق ومراد.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾

شرح الكلمات :

على الضعفاء : أي كالشيوخ . **ولا على المرضى** : كالعمى والزَمْنَى

حرج : أي إثم على التخلف .

إذا نصحوا لله ورسوله : أي لا حرج عليهم في التخلف إذا نصحوا لله ورسوله وذلك بطاعتهم لله ورسوله مع تركهم الإرجاف والتثبيط .

ما على المحسنين من سبيل : أي من طريق إلى مؤاخذتهم .

لتحملهم : أي على رواحل يركبونها .

تولوا : أي رجعوا الى بيوتهم .

تفيض من الدمع : أي تسيل بالدموع الغزيرة حزناً على عدم الخروج .

معنى الآيتين :

لما ندد تعالى بالمتخلفين وتوعد بالعذاب الأليم الذين لم يعتذروا منهم ذكر في هذه الآيات أنه لا حرج على أصحاب الأعزار وهم الضعفاء ، كالشيوخ والمرضى والعميان وذوو العرج[1] والفقراء الذين لا يجدون ما ينفقون ولكن بشرط نصحهم لله ورسوله فقال عز

---

(١) شاهده من سورة الفتح : ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج﴾ وقوله تعالى : ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ .

وجل ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج﴾ أي إثم ﴿إذا نصحوا لله ورسوله﴾[1] ومعنى النصح لله ورسوله طاعتهما في الأمر والنهي وترك الإرجاف والتثبيط والدعاية المضادة لله ورسوله والمؤمنين والجهاد في سبيل الله وقوله تعالى ﴿ما على المحسنين من سبيل﴾ أي ليس على من أحسنوا في تخلفهم لأنه أولاً بعذر شرعي[2] وثانياً هم مطيعون لله ورسوله وثالثاً قلوبهم ووجوههم مع الله ورسوله وإن تخلفوا بأجسادهم للعذر فهؤلاء ما عليهم من طريق إلى انتقاصهم أو أذيتهم بحال من الأحوال، كما ليس من سبيل ﴿على الذين إذا ما أتوك لتحملهم﴾ إلى الجهاد معك في سيرك ﴿قلت﴾ معتذراً إليهم ﴿لا أجد ما أحملكم عليه تولوا﴾ أي رجعوا إلى منازلهم وهم يبكون والدموع تفيض من أعينهم حزناً[3] ﴿ألا يجدوا ما ينفقون﴾ في سيرهم معكم وهم نفر منهم العرباض بن سارية وبنو مقرن وهم بطن من مزينة. رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين :

١ـ لا حرج على أصحاب الأعذار الذين ذكر الله تعالى في قوله ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج﴾ وفي هذه الآية ﴿ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون﴾ حرج وبشرط طاعة الله والرسول فيما يستطيعون والنصح[4] لله والرسول بالقول والعمل وترك التثبيط والتخذيل والإرجاف من الإشاعات المضادة للإسلام والمسلمين.

---

(١) قال القرطبي : ﴿نصحوا لله ورسوله﴾ إذا عرفوا الحق وأحبّوا أولياءه وأبغضوا أعداءه، ومع قبول أعذار أصحاب الأعذار فقد خرج ابن ام مكتوم إلى احد وهو رجل أعمى، وطلب أن يُعطى الراية ليحملها، وخرج عمرو بن الجموح وهو أعرج خرج إلى احد فقال له رسول الله ﷺ : (إنّ الله قد عذرك) فقال : والله لأحفرنّ بعرجتي هذه في الجنة.

(٢) روى أبو داود عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لقد تركتم بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم من وادٍ إلاّ وهم معكم فيه، قالوا : يارسول الله وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال : حبسهم العذر؟)

(٣) ﴿حزناً﴾ منصوب على أنه مفعول لأجله، وجملة : ﴿وأعينهم﴾ : حال من ﴿تولوا﴾.

(٤) النصح : إخلاص العمل من الغش يقال : نصح الشيء : إذا خلص، ونصح له القول : أي أخلصه له. وفي صحيح مسلم عن تميم الداري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (الدين النصيحة ـ ثلاثا ـ قلنا لمن يا رسول الله قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) ذكر القرطبي معاني هذه النصائح بالتفصيل عند تفسير هذه الآية فليرجع إليها من طلب ذلك.

٢- مظاهر الكمال المحمدي في تواضعه ورحمته وبره وإحسانه إلى المؤمنين

٣- بيان ما كان عليه أصحاب الرسول ﷺ من المهاجرين والأنصار من الإيمان واليقين والسمع والطاعة والمحبة والولاء ورقة القلوب وصفاء الأرواح.

اللهـم إنا نحبهم بحبك فأحببنا كما أحببتهم واجمعنا معهم في دار كرامتـك.